الدكتور محمد البهي

# نحو .. القرآن

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ - شارع الجمهورية بعابدين
ت ٩٣٧٤٧٠

اهداءات ٢٠٠٤

الدكتور / أحمد شحاتة الجمال
الاسكندرية

الدكتور محمد البهي

# نحو.. القرآن

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ - شارع الجمهورية بعابدين
ت : ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

ربيع الآخر سنة ١٣٩٦ هـ
أبريل سنة ١٩٧٦ م



مطبعة التقدم
شارع [illegible] بالمنيرة - القاهرة
تليفون ٨٤١٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

● نزل كتاب الله وقرآنه ، موحى به إلى رسول الله محمد بن عبدالله ، عليه الصلاة والسلام . وجمع ، ودون فيما نقرأه اليوم في مصحف عثمان . وبقي كما أنزل لم يتغير ، لأن التغير ليس من طبيعته . إذ هو لله . وما كان لله : باق ، فوق الزمان .. والمكان .. وفوق عوامل التغيير جميعها .

● والذى يتغير هو ماحول القرآن من أفهام الناس .. ونظراتهم .. وما لهم من آراء وقد يقتربون منه ولهم نوايا طيبة ، وقد تكون لهم أغراض لا إنسانية ، أو لهم تصورات منبثقة عن حسن تقدير ، ولكنها تخرجه عن دائرة رسالته ، أو لهم آراء سيئة مبيتة .

والناس عندما يقتربون من القرآن يقترن منه : إما ليستلهموا رأيه .. أو يفرضوا عليه رأيهم ، أو تصوراتهم :

فمن استلهمه الرأى أعطاه الحجية فى إعجازه .. وفى ملاءمته لتوجيه الطبيعة الإنسانية .

ومن فرض عليه الرأى المبيت .. أو التصور البرىء : أخرجه عن هدفه .. أو عطله من رسالته .. أو رده إلى خرافة .. أو نقله إلى بدائية .

● وهذا البحث : « نحو .. القرآن » .. الذى نقدم له الآن : يعرض فى بابين .. أثر النوعين من الاقتراب نحو القرآن : على القرآن نفسه .

فالباب الأول : يعرض الأثر الناتج عن اتجاه المستلهم له . وهو أثر يتبلور فى فصلين:

الفصل الأول : فى إعجاز القرآن . . من الناحية الموضوعية . .

والفصل الثانى : فى إعجازه من ناحية الملاءمة فى توجيهه لطبيعة الإنسان.

والباب الثانى : يجعل الأثر الناتج عن ذلك الإتجاه الذى يقترب من القرآن ، فى صحبة تصور برىء .. أو رأى مغرض مبيت من قبل. وهو أثر يشار إليه فى فصلين كذلك.

الفصل الأول : فى تفسير القرآن ، تفسيراً غير موضوعى .

والفصل الثانى : فى التحديات التى يدفع بها المغرضون بالأمس ، واليوم : لتجميد رسالته .. أو لنقلها من مستواها الإلٰهى المعصوم إلى عمل للإنسان : يصيب ، ويخطىء . وربما يخطىء أكثر مما يصيب .

ولذا : كان الباب الأول — وهو كتاب الله فى حجيته — يتضمن : موضوعية التوجيه ، وإعجاز القرآن فى فصل .. وبين طبيعة الإنسان ، وهداية القرآن فى فصل ثان .

بينما الباب الثانى — وهو صنعة الإنسان حول كتاب الله — يشمل : القرآن ، والتفسير الموضوعى فى فصل .. وتحديات القرآن بين الأمس ، واليوم ، فى فصل أخير.

● وهذا البحث يستهدف توجيه المفكرين من المؤمنين : إلى القرآن، قبل اتجاههم إلى من يسألونهم عما دونوه ، وكتبوه حول القرآن . وكتاب الله مفتوح لكل من صفا قلبه ، وقوى إيمانه . وما كتب حوله ممن اقترب منه : هو فى المتناول : للإطلاع عليه فى كل وقت . ولكن له المنزلة الثانية بعد كتاب الله ، وليس معه ، أو قبله .

والله الموفق ؟

محمد البهى

مصر الجديدة : فى { ٢٥ من ربيع الثانى سنة ١٣٩٣ هـ
٢٨ من مايو سنة ١٩٧٣ م }

# الباب الأول

# كتاب الله في حجيته

- موضوعية التوجيه ـ وأعجاز القرآن
- بين طبيعة الانسان ـ وهداية القرآن

الفصل الأول

# موضوعية التوجيه .. وإعجاز القرآن

تمهيد :

كلما كان مصدر التوجيه موضوعيا .. كلما كان أقرب إلى التعبير عن المستوى الإنسانى الرفيع : فى التفكير .. وفى الذوق .. وفى الإرادة والعمل .. وفى الوقت نفسه كلما بعد أن يكون فى مقدور الإنسان المتوسط ، ويكاد يكون خاصاً بأصحاب المواهب والمتفردين فى نشاط الإنسان الفكرى .. والذوقى .. والإرادى أو العملى .

فإذا خلص مصدر التوجيه : لموضوعية التوجيه ... ولموضوعية المبادىء التى تصور القيم الرفيعة فى الفكر الإنسانى .. وفى صفاء العلاقات واتسامها بجمال الإنسانية ، وفى العمل والتطبيق وبعده عن الضلال والحيرة : كان هذا المصدر فوق طاقة البشر ، وبالتالى كان معجزاً للإنسان ، مهما استعان فى مثله بآخرين معه فى الطاقة والقدرة على الإنتاج . وحينئذ يقال : إن هذا المصدر معجز ... كما يقال : إن الذى يدعو لما فيه ... يدعو بتكليف من قوة فوق قوة الإنسان، وليس من ذاته... وقد اختير هذا الداعى من تلك القوة المتفوقة لأداء رسالة الدعوة إليه . فهو رسول ... وما يدعو إليه : رسالة .

وإذا ثبت أن رسالة الله التى أرسل بها رسول لم تزل تصور موضوعية التوجيه البشرى فيها لخلوها من التحريف ... فإنها عندئذ تكون الأصل أيضاً فى بناء الحضارة الإنسانية . أى فى بناء ذلك الإطار الذى يضم كل قيمة رفيعة يسعى إليها الإنسان ... والذى يتحرك فيه الإنسان المتحضر . ذلك الإنسان الذى يرى أن السلام ـ سلام النفس ..

أو سلام العلاقات بين النفوس ـ هدف الإنسان فى حياته . وسيشير الإيمان بذات الله فى هذا الإطار الحضارى ، بما لهذه الذات من صفات عديدة : إلى جميع القيم الرفيعة التى يجب أن يسعى الإنسان المتحضر لمحاكاتها فى : تفكيره ... وإحساسه بالجمال ... وإرادته فى العمل .

فكل صفة من صفات الله تعتبر قيمة رفيعة يسعى الإنسان المؤمن بالله إلى محاكاتها : فالخلق ... والإبداع ... والعلم ... والحياة ... والإرادة ... والقدرة ... والشدة ... والرحمة ... والغنى ... والسلام ... والهيمنة ... إلى بقية الصفات الأخرى له : هى قيم عليا يحاكيها من يؤمن بالله ، ويعبده .

والإيمان بالله إذن هو : منطلق اليقظة إلى وجود القيم الرفيعة فى حياة الإنسان فى إطار الحضارة البشرية . بينما عبادة الله ـ أو الإسلام أو الخضوع والامتثال لله ـ هى السبيل إلى تحريك الإنسان المؤمن فى سعيه نحو محاكاة صفات الذات له جل جلاله ، كقيم عليا ينشدها الإنسان ، إذا ما فكر ... أو أراد ، وعمل فى إطار حياته الخاصة ... أو فى دائرة حياته مع الآخرين فى مجتمعه .

والدين إذن إذا كان منهجا وطريقاً فمرتكزه الأول والأخير الإيمان بالله . وبغير الإيمان بالله لا يعى الإنسان غير المؤمن قيما عليا فى حياته ... وبالتالى لا يتحرك فى السعى نحو محاكاتها .

والحضارة الإنسانية هى ـ بعد ذلك ـ إيمان بالله ، طالما هى مجموع النشاط الإنسانى فى تفكيره .. وفى ذوقه وإحساسه بالجمال .. وفى مجاله الإرادى الحر . ذلك النشاط الرفيع فى مستواه ، ولن يكون نشاط الإنسان رفيعاً فى مستواه إلا إذا وعى القيم العليا أولا وسعى إلى محاكاتها بعد ذلك . وذلك عن طريق الإيمان ... والإسلام ، أى عن طريق الإيمان بالله ... والإذعان له فى عبادته إياه .

* * *

**ماقيل فى اعجاز القرآن :**

وقد قيل كثيراً عن إعجاز القرآن ، ولكن ربما لم يقل حتى الآن عن إعجازه ، عن طريق موضوعية التوجيه فيه . كما لم ينوه بالربط بين موضوعية التوجيه وقيام الحضارة الإنسانية .

● **اعجاز القرآن بالاسلوب :**

هناك من يقول من العلماء بأن إعجاز القرآن ، وصدق دلالته على رسالة الرسول محمد عليه السلام ، يعود إلى أسلوبه العربى : فى البلاغة ... والفصاحة ... وحسن الصياغة والتركيب . ويعتمدون فى ذلك على مثل ما جاء فى سورة البقرة من قول الله تعالى :

« وإن كنتُمْ فى ريبٍ (والخطاب موجه إلى المشركين الماديين بمكة ) مِمَّا نَزَّلْنا على عبدِنَا ( والذى أنزل هو القرآن .. وعبد الله هو رسوله محمد عليه السلام ) فأْتُو بِسورةٍ من مِثْلِهِ ،

« وادعوا شهداءكُمْ مِنْ دونِ اللهِ (وهم أصنامهم يحضرون معهم ) إنْ كنتُمْ صادِقِينَ .

« فإن لم تَفْعلوا ، ولن تَفْعلوا ، فاتقوا النارَ التى وقودُها : الناسُ ، والحجارة ، اُعِدّتْ للكافرينَ »[1] .

... فالقرآن يتحدى الكافرين به والذين يعارضونه ـ وهم عرب مثل الرسول عليه السلام ـ وأكثر تمرساً منه على الأسلوب فى التعبير : بأن يأتوا بسورة مماثلة لسوره . ولهم أن يستعينوا بما يشـــاءون من أنصارهم ومعبوداتهم : فى الإتيان بالسورة المماثلة المطلوبة . وفى الوقت الذى يتحداهم القرآن بذلك : يقطع : بأنهم لا يستطيعون أن يأتوا بالسورة المماثلة . لأن القرآن من عند الله ، وليس من صنع البشر إطلاقا . وما كان لله لا ترقى لكماله : صنعة الإنسان ، أىّ إنسان .

---

( ١ ) البقرة : ٢٣ / ٢٤ .

ففهم الذين يقصدون بالإعجاز : إعجاز الأسلوب فى البلاغة ، والفصاحة ، وجودة التعبير : من مماثلة السورة المطلوبة فى التحدى ... مماثلة الأسلوب العربى للقرآن . فإذا عجز المكيون ـ وهم عرب ـ عن ذلك ، قامت الحجة عليهم ، وألزموا بالتالى بصدق الرسول محمد عليه السلام . وطالما ألزم المكيون بصدق رسالته بسبب عجزهم عن الإتيان بسورة مماثلة ... فالبشر جميعاً يلزمون كذلك بصدقها . لأنه عنـــدئذ : يلزم العرب المكيون باعتبار أنهم أهل الاختصاص بين الجنس البشرى بأسلوب القرآن ، ومتى قامت الحجة على أهل الاختصاص ، فإنها تقوم على الباقين الآخرين بين الناس جميعاً : بالأولى .

ولكن إذا قرأنا تعليق القرآن على تحديه فى هذا الشأن ، فى قول الله تعالى فى سورة يونس :

« وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دونِ اللهِ ،

« ولكنْ تصديقَ الذى بين يديهِ ( أى من التوراة والإنجيل ) وتفصيلَ الكتابِ ( وهو الرسالة الإلـهية عامة ) لا ريبَ فيهِ من ربِّ العالمينَ .

« أم يقولون : أفتراه ؟ »

« قل: فأْتوا بسورةٍ مثلِهِ ، وادعوا من استطعتُمْ من دونِ اللهِ إن كنتمْ صادقينَ .

« بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمِهِ ،

« ولمَّا يأتِهم تأويلُهُ ،

« كذلك كذَّبَ الذين من قبلِهمْ فانظر : كيفَ كانَ عاقبةُ الظَّالمينَ » (١).

.. إذا قرأنا تعليق القرآن هنا فى قوله : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله » ... فإن هذا التعليق يشير إلى أن رفضهم للقرآن كان مبكراً وسابقاً على إحاطتهم

---

( ١ ) يونس : ٣٧ — ٣٩ .

به ... وكذلك كان سابقاً على عدم وقوفهم على مبادئه وأهدافه . إذ لو أنهم أولا : أحاطوا به علماً ... ووقفوا على أهدافه ومبادئه ... ربما ترددوا فى رفضه ، لأن فيه من المبادىء والأهداف ما يحمل غير المتحزب لهواه على الإعتراف به كمصدر صالح لتوجيه البشرية .

وفى مضمون هذا التعليق ما يدل : على أن « المماثلة » المتحدى بها ، ليست مماثلة اختيار اللفظ ، وحسن صياغة التركيب ، بقدرما هى : فى صلاحية مبادئه للبشرية وعمومها للناس كافة .. وبقدر ما هى فى تجردها عن البواعث الخاصة . ولو كانت هذه المبادىء من شخص، ونتيجة لظروفه وبيئته الخاصة ، لما كان لها عموم الصلاحية فى التوجيه عندئذ .

* * *

● **اعجاز القرآن . . باخباره بالغيب :**

ويرى بعض آخر من العلماء : أن فى بعض آيات القرآن الكريم ما يعبر عن نهايات معينة لبعض مجتمعات بشرية ، أخبر بها قبل أن تقع . . وفى وقت يظن الناس فيه : أن عكس هذه النهايات التى أخبر بها : هو الصحيح لبعض هذه المجتمعات . فيقول فى سورة آل عمران :

« قُلْ لِلَّذِينَ كفروا (وهم المكيون الماديون) سَتُغْلَبونَ (أى سينتصر عليكم المؤمنون بمحمد عليه السلام ).

« وتُحشرونَ إلى جهنم ، وبئسَ المهادُ .

« قد كانَ لَكُمْ آيةٌ فى فئتينِ التقتـا ( فى غزوة بدر ) :

« فئةٌ تقاتلُ فى سبيلِ اللهِ ،

« وأخرى كافرةٌ ، يرونَهم مثليهمْ رأىَ العينِ ،

« واللهُ يؤيد بنصرِهِ من يشاء ، إن فى ذلكَ لَعِبرةً لأولى الأبصارِ »(١) .

(١) آل عمران : ١٢، ١٣.

.. فأخبر القرآن عن نهاية المجتمع المادى فى شبه الجزيرة العربية بانتصار المؤمنين على الماديين فيه، فى وقت كان يتمتع به هؤلاء الماديون بقوة عددية، وإعدادية.. بينما المؤمنون كانوا على ضعف فى العدد، والعدة معاً. وضرب القرآن بما انتهى إليه الأمر فى « بدر » مثلا على ما أخبر به من النهاية الأخيرة للماديين التى تنتظرهم.

.. ويقول فى سورة الروم:

« آلم. غُلِبتِ الرومُ فى أدْنى الأرضِ ( أى فى الأرض القريبة المجاورة لشبه الجزيرة العربية. وهى أرض الشام. وقد غلبت الروم فى الحرب الشاملة بينها وبين الفرس، والتى ابتدأت فى سنة ٦٠٣ بعد الميلاد، واستمرت حتى بعد سنة ٦١٠ على عهد الأمبراطور الرومانى هيراقل — Heraclius الذى دام حكمه من ٦١٠ — ٦٤٢. وفى هذه الحرب اكتسح الفرس الرومان. واحتلوا: حلب.. ودمشق.. ومعظم المدن السورية الأخرى فى سنة ٦١١، كما سقطت القدس فى أيديهم سنة ٦١٤ —٦١٥، تقريباً سبع أو ثمانى سنوات قبل هجرة الرسول إلى يثرب. وقد أحرقت القدس، وحوصرت، ونكل بالمسيحيين هناك، كما أحرقت الكنائس، وسلبت الآثار المسيحية المقدسة: وفى مقدمتها: الصليب الذى يدعى أن المسيح صلب عليه. واحتفل رجال الدين فى فارس بانتصارهم على رجال المسيحية فى القدس )،

« وَهُمْ من بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبونَ. فى بِضْعِ سنينَ ( وابتدأ الرسول ﷺ دعوته فى سنة ٦١٠، وأعلن تبليغه الوحى إلى الناس. وفى هذا الوقت الذى شغل فيه العالم إذ ذاك بانتصار الفرس على الروم، واعتقد: أنه انتصار فاصل.. يوحى الله إلى رسوله عليه السلام: بأن هذا النصر قريب الأجل، أى لا يستمر إلا بضع سنين.. وبأن الرومان سينتصرون على الفرس بعد مضى هذه السنين القلائل انتصاراً ساحقاً. أخبر القرآن بذلك، والرسول بمكة، ولم تتقرر هجرته بعد إلى يثرب. وحصل الرومان على النصر فى عهد هرقل (٦١٠ ـ ٦٤٢) أو بعد الهجرة إلى المدينة. وقد كانت سنة ٦٢٢م.

وقد احتفل هيراقل بهـذا النصر فى مدينـة القسطنطينية أولا فى سنة ٦٢٨ ، أى بعد الهجرة بست سنوات . ثم سار من القسطنطينية إلى مدينة : حمص بالشام .. ومن هناك إلى القدس . وأعاد الوضع المسيحى ، الذى كان للإمبراطور الرومانى من قبل ) ،

« للهِ الأمرُ من قبلُ ، ومن بعدُ ( أى أمر الهزيمة والنصر — وكذلك كل شأن فى نهايته — يرتبط بإرادة الله وحده ) .

« ويومئذٍ يفرحُ المؤمنونَ بنصْرِ اللهِ ( أى وانتصار الرومان بعد هزيمتهم : على الفرس ، هو بشرى للمؤمنين يفرحون بها . لأنه انتصار دولة سيعقبه فناء أمة . فالنصر عقد الآن لدولة هيراقل . ولكن سيتحول إلى فناء الإمبراطورية الرومانية فى الشرق كله . . وفى شمال أفريقيا ، ويرثهم المؤمنون فيما لهم من ديار . . وأموال .. وشعوب . وهكذا : الحرب بين الرومان والفرس — بغض النظر عن المنهزم والمنتصر فيها — كانت مقدمة لنشر الإسلام وعزة المؤمنين : فيما كان للإمبراطوريتين معاً . ونصر الله الذى يفرح به المؤمنون هو نصره للمؤمنين أنفسهم فى شبه الجزيرة .. وما وراء الجزيرة . وليس نصره للرومان باعتبار : أنهم أهل كتاب ، كما يدعى فى كتب التفسير . وإلا : هل أهل الكتاب مؤمنون بالله فى الوقت الذى يقولون فيه : بالتثليث .. وبألوهية المسيح . . وبادعائهم : أن عزيراً ابن الله ؟ . يجيب القرآن الكريم على ذلك بقوله :
« لقدْ كفَرَ الذينَ قالوا : إنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ ، ومَا مِنَ إلهٍ إلاَّ إله واحدٌ »(١) .

« ينْصُرُ من يشاء ، وهُو العزيزُ الرّحيمُ .

« وَعْدَ اللهِ ، لا يخلفُ اللهُ وعْدَهُ ، ولكنَّ أكْثرَ النَاسِ لا يعلمونَ (والله لم يعد بنصره إلا المؤمنين وحدهم . وهذا يؤكد : أن فرح المؤمنين بنصر الله ليس هو بنصر الرومان على الفرس . ولكن بنصر المسلمين أنفسهم : فى « بدر » أولا .. ثم بعد ذلك خارج الجزيرة فى دنيا الإمبراطورية الفارسية ، والأخرى الرومانية )(٢) ..

(١) المائدة : ٧٣ . (٢) الروم : ١ — ٦ .

.. وهكذا يخبر القرآن بأمرين تحققا بعد فترة من الزمن :

**أولا :** يخبر قبل الهجرة من مكة إلى يثرب بانتصار الروم على الفرس . ولم يقع هذا الانتصار إلا بعد ست سنوات من الهجرة .

**ثانيا :** يخبر بأن المؤمنين سيفرحون بنصر الله لهم على الماديين المكيين بشبه الجزيرة ، وعلى الروم والفرس جميعاً . ويخبرهم بذلك وهم أيضاً بمكة يلقون الهوان من المكيين الذين لا يعدون شيئاً فى مواجهة الفرس ، أو الروم . وقد فتح المسلمون مكة انتصاراً على المشركين ، ودخلوا بيت المقدس ، كما فتحوا القسطنطينية ، ودخلوا فارس وأطراف الإمبراطوريتين .

فإخبار القرآن بهذه الأمور المغيبة يتخذه بعض العلماء دليلا على صدق الرسول عليه السلام فى رسالته . فالرسول عليه السلام كإنسان ليست له من الأهلية أن يخبر بما أخبر به القرآن هنا . والقرآن إذن ليس من الرسول ، ولا صادراً عنه . بل هو وحى من الله إليه .

ولكن أيضاً لو قرأنا فى شأن القرآن فى مواجهة المكيين الماديين ، قول الله تعالى:

« أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ : أنَّا أنزلنا عليكَ الكتابَ يُتلى عليهِمْ ؟

« إنَّ فى ذلكَ لرحمة ، وذِكرى لقومٍ يؤمنونَ » (١) .. فى رده على الماديين المكيين عندما طلبوا آية مادية على صدق الرسول ﷺ فى قولهم قبلا : « وقالوا : لَوْلاَ أُنزل عَلَيْهِ آياتٌ من ربهِ ، ( أى عدا القرآن ) قُل: إنَّما الآياتُ عندَ اللهِ ، وإنما أنَا نذيرٌ مبين » (٢) . لو قرأنا هذا الرد : لبان لنا أن أمراً آخر وراء الإخبار بالغيب وهو ما ينطوى عليه القرآن من هداية لصالح الناس : « إن فى ذلك لرحمة ، وذكرى

---

(١) العنكبوت : ٥١ .
(٢) العنكبوت : ٥٠ .

لقوم يؤمنونَ .. هو السر فى حجيته الآن ، وفى كونه دليلا على صدق الرسول عليه السلام .

ولكن ليس معنى ذلك : أن الإخبار بالغيب . كحسن النظم والصياغة فى الأسلوب من قبل .. ليسا من الجوانب المميزة فى القرآن ، والتى تدل على سموه وارتفاعه عن طاقة البشر . إلا أنه قد يواجه الإخبار بالغيب : بأن تحققه كان من الصدفة ، أو كان نتيجة لنظرة بعيدة فى حركة التاريخ وظروف أحداثه . كما قد يواجه الأمر الثانى بأن إدراك قيمة الصياغة فى أسلوبه وقف على أناس معينين ، وفى جيل خاص ، وهو جيل المنافسة فى التعبير فى الأسواق الموسمية ، التى كانت تقام من وقت لآخر فى شبه الجزيرة .

* * *

● موضوعية التوجيه :

إن أى عمل عادى للإنسان — أى ليس فوق مستوى البشر — قد لا يسهم إطلاقا فى الحضارة البشرية . وكلما تميز عمل لإنسان : فى دقته .. وفى إبداعه .. وفى تجرده عن البواعث الشخصية والأهداف الخاصة : كلما كان إسهامه فى بناء الحضارة ، بقدر ما له من مستوى ودرجة فى التميز .

إن الحضارة الإنسانية بمعناها الذى ينم عن جوانب الإنسانية فى : الذوق والجمال .. والإرادة والعزم . . والفكر والمنطق : هى حصيلة الإسهامات العديدة من الأفراد فى هذه الجوانب . ولا يدخل هذه الحصيلة إلا ذلك الإنتاج للإنسان الذى كان أقرب إلى قمة الإنسانية ، منه إلى مستوى آخر أدنى من هذه القيمة .

والتجرد فى الإنتاج عن البواعث الشخصية والأهداف الخاصة هو الإطار العام — أو الضابط الكلى — لما يسمى بمستوى القمة فى الإنسانية . لأن عيوب الإنتاج الإنسانى ، أو النقص فيه ، الذى يصحبه : يرجع إلى مدى تأثر الشخص فى إنتاجه

بعوامل غير إنسانية . . أى إلى تأثره بما يتصل بأنانيته . لنأخذ مثلا : عدم الإبداع في الإنتاج . نجد أنه لا يعود إلى عدم المهارة وحدها ، ولا إلى عدم التمرس فيه فقط . وإنما لعامل آخر عداه ، حتى ولو توفرت المهارة للإنسان المنتج . وهـذا العامل هو عدم الإخلاص للروح الإنسانية فيه . فالذى يركز على الـكسب المادى من وراء إنتاجه الفنى لا يبدع فى إنتاجه . والذى يؤثر الـكم فى إنتاجه على النوع فيه ، مع توفر المهارة الفنية له: لا يبدع أيضاً فى الإنتاج . ومن ثم لا يبدع فى العمل ولا يتقنه . ومن لا يتقن العمل يعرّض غيره للخداع وقبول الخدعة . ومن يعرّض غيره للخداع يبعد كثيراً عن قمة الإنسانية ، بل ربما ينزل تماما عن مستواها .

ومهما كان من شأن الإنسان فى تجرده فإنه بحكم شهوته وهواه . . أى بحـكم غرائزه وميوله : فإنه لا يصل فى عمله إلى القمة فى مستوى الإنسانية . أى أن عمله : إن دل من جانب على سمو فى إنتاجه . . فإنه من جانب آخر يدل على تدل فى هذا السمو ، لا يرقى به إلى القمة . فحتما سيوجد نقص ، تأثر فيه بظروف ذاته الخاصة .

ويعنى ذلك : أن التجرد التام فيما يعبر عن مستوى الإنسانية . . وفيما يضع للمستوى الإنسانى من مبادىء : ليس فى استطاعة الانسان. وهو بالتالى خارج عن إمـكانياته البشرية ، ويمثل بالأحرى قدرة فوق قدرته ، وطاقة عليا لا يصل إليها الإنسان مطلقـاً . والحضارة الإنسانية التى تقوم على هذا المستوى الـكامل من التجرد هى حضارة أصيلة فى تعبيرها عن الإنسانية . . وفى صلاحيتها للبشرية . . وفى اقتباس الإنسان منها ، والهداية بها : فيما يفـكر . . ويريد . . وفيما يسلك .

فهل تجرد القرآن فيما عبر للإنسانية من مبادىء ؟

هل كانت مبادئه فوق إنتاج الإنسان — أى إنسان — وتصور فى ذاتها قمـة الإنسانية فى أعلا مستواها ؟

هل القرآن خارق للعادة . . أى هل هو معجز للإنسان ؟ . . وهل هو آية صدق على

أن المتحدث به لم يتحدث به من ذاته . . ويسبب ذاته ؟.

* * *

إن رسول الله ﷺ لم يتحدث عن القرآن من ذاته .. ولا يسبب ذاته . إنه أوحى إليه ، وكلف بتبليغه للناس . وآية ذلك :

أولا : إنه سجل أنواعاً من العتاب لرسول الله عليه السلام بسبب ما أخذ عليه فى سياسته فى الدعوة . . وما أخذ عليه كذلك فى سياسته الأخرى فى الحرب ، بما يفضل الإنسان عادة أن لا تذكر هذه المآخذ علناً وفى سجل تاريخى .

ثانيا : أنه سجل خصوصيات أسرته ، بما لا يرغب الإنسان عادة فى أن يعلمه غيره من الناس . وما سجله هنا . . وهناك يدل أكيداً . على أن الرسول عليه السلام لم يتحدث بالقرآن من ذاته . . ولا بسبب ذاته . فليس هناك إنسان يتحدث من ذاته وبسبب ذاته فى إنتاجه الفكرى: وينبغى أن يتحدث عما أخذ عليه فى السياسة والتوجيه .. أو عما يسيء عادة وبحسب العرف : له فى أسرته الخاصة .

● يسجل القرآن ما أخذ على رسول الله ﷺ فى سياسة الدعوة :

من أنه لم يتخلص تماماً — ويستحيل عليه ذلك لأنه بشر — من التأثر بالزعامة والجاه فى قومه . . وأنه من أجل ذلك مال نفسياً إلى مجاملة الزعماء والوجهاء ، ولو على حساب الضعفاء المؤمنين به . . أى ولو على حساب عواطفهم وأحاسيسهم . ويشير إلى قصة ابن أم مكتوم ، فيما يحكيه فى قول الله تعالى :

« عَبَسَ ، وَتَوَلَّى ( أى قطب الرسول عليه السلام وجهه وأعرض بميله ونفسه ) : أَنْ جاءَهُ الأَعْمَى ( أى عندما قدم عليه الأعمى وهو عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهرى من بنى عامر بن لؤى : المعروف بابن أم مكتوم ، وقد أخذ يكرر السؤال له : عن رغبته فى أن يعلمه الرسول شيئاً مما نزل عليه من الوحى . وهنا كان عليه السلام مشغولا ببعض وجهاء قريش فلم يعره أهمية وضاق صدره به . وممن كان

مشغولا بهم : عتبة .. وشيبة ، ابنا ربيعة . . وأبو جهل بن هشام . . والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف . . والوليد بن المغيرة ) .

« ومَا يُدْرِيكَ لعلَّه يَزَّكَّى . أو يذَّكَّرُ فتنفعَهُ الذِّكرَى (وهنا سبب العتاب على الرسول عليه السلام فى أنه لم يلتفت إلى ابن أم مكتوم . وكأنه يقول له : إن هذا الأعمى ربما يرجى منه الخير للدعوة . فقد تزداد نفسه صفاء . . وبالتالى يزداد إيماناً بها . وعندئذ لا ينسى ما تعلمه من أمرها . . ولا يقصر فى ترديده للآخرين ) :

« أمّا مَنِ استغْنَى . فأنتَ لَهُ تَصَدَّى . ومَا عَلَيْكَ ألاَّ يزَّكَّى . وَأمّا مَنْ جاءكَ يسْعَى . وهُوَ يخْشَى . فأنتَ عنهُ تلَهَّى ( أى من أمثال ما اتجهت إليهم أيها الرسول عليك صلوات الله ، وانصرفت لشأنهم عن شأن هذا الضعيف . فهؤلاء بسبب زعامتهم وجاههم . . وبسبب ما يملكون من مال : يرون أنهم فى غنى عن أن يتبعوك ويكونوا لك مؤمنين بما تدعوهم إليه . ولا يهمهم أن تتطهر نفوسهم من المظالم والعبث ، بقدر ما تهمهم : المحافظة على الجاه والزعامة . وبهذا الانصراف عن الأعمى من جانب . . والإقبال على هؤلاء الوجهاء من جانب آخر : أملت فيمن لا يؤمل فيهم . . وتركت من موضع الأمل ، بشأن دعوتك . وما فعلت ذلك إلا تحت الانطباع الذى يخلقه الجاه ، وتوحى به الزعامة . وهو انطباع خادع يحمل على الظن بالانتفاع بأصحاب الجاه والزعامة ، مع أنهم الذين يربحون دائماً ويتركون غيرهم يعيشون فى أمل فيهم والتقرب إليهم ) (١) .

. . ويوضح له هذا المعنى فى صورة قانون عام : فيما يقصه فى سورة الكهف :

« واتْلُ مَا أوحِيَ إليْكَ مِنْ كِتَابِ ربِّكَ ، لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، ولنْ تَجِدَ من دونِهِ مُلتحَداً ( أى ملجأ ) .

« واصْبِرْ نفْسَكَ ( أى خذ نفسك بالصبر والتحمل ) مع الذين يدْعُون ربَّهُمْ بالغداةِ

---

(١) عبس : ٦ — ١٠

والعشِيِّ يُريدونَ وجْهَهُ ( أى مع أولئكم الذين أخلصوا فى إيمانهم لله وحده ، والذين يتجهون إليه فى كل أوقاتهم ، لا يطلبون منفعة مادية . إنما يقصدون وجهه ورضاه فحسب ) .

« ولا تَعْدُ عيْنَاكَ عَنْهُمْ ( أى لا تتجاوز ببصرك هؤلاء المخلصين . وهم الضعفاء فى القوم ) تُريدُ زِينَةَ الحياةِ الدنْيا ( بالإتجاه إلى الآخرين من الزعماء وأصحاب الجاه ) .

« ولا تُطِعْ من أغْفَلْنَا قَلْبَه عن ذِكْرِنَا ، واتَّبَعَ هَوَاهُ ، وكانَ أمْرُه فُرُطاً ( وهم أولئكم المستكبرون : أصحاب الزعامة والنفوذ ) .

« وَقُلِ الحقُّ من رَبِّكُمْ ،

« فَمَنْ شاء فليؤْمِنْ ، ومن شاء فليكْفُرْ »[1] .

.. فى هذه الآيات يأمر الله سبحانه رسوله محمداً عليه السلام بأمور تحدد : معالم الطريق السليمة للدعوة :

اولا : يأمره بأن يقتصر فى تبليغه للنـــاس على ما يوحى إليه من كتاب الله .. ولا يتجاوزه بحال. لأنه لا يقبل التبديل ، كما أنه ليس وراءه مصدر آخر لتوجيه البشرية .

ثانيا : يأمره بالوقوف بجانب المخلصين فى إيمانهم من أولئكم الضعفاء ومن آحاد الناس فى قومه . فالخير كل الخـــير فى الوقوف بجانبهم ، وتحمل ما يثيرونه من أسئلة . ولا يترك هؤلاء ليؤمل فى الآخرين من أصحاب السيادة والنفوذ فى المجتمع . لأنه لو فعل ذلك يكون قد انصرف بالفعل عن الدعوة ، وتأثر بمفاتن الدنيا وزينتها .

ثالثا : بأنه يحذر من أن يقع فى طاعة الكبراء والزعماء فى المجتمع . إذ أن هؤلاء لا يتبعون فى سلوكهم وتصرفاتهم إلا هوى نفوسهم .. وقد بلغ وقوعهم تحت تأثير هواهم : مبلغاً لا رجاء فى العودة منه . ومن ثم أغلقت قلوبهم دون ذكر الله ، فضلا عن الإيمان به .

---

( ١ ) الكهف . ٢٧ — ٢٩

رابعاً: إن وظيفته لا تتجاوز : دور عرض الدعوة ، مجردة عن كل مؤثر خارجى .
حتى يؤمن بها من يؤمن . . ويكفر بها من يكفر : عن حرية ومشيئة إنسانية خالصة .

. . ويؤكد له مرة أخرى : طلبه فى : أن يتسع صدره عليه السلام لأولئكم الضعفاء من المخلصين فى الإيمان بدعوته .. وفى أن يتجنب ما يشعرهم بعدم الرغبة فيهم ، فيقول :

« ولا تَطْرُدِ الذين يدعونَ ربَّهُمْ بالغداةِ والعَشِي يريدونَ وجْهَهُ ،

« مَا عَليكَ مِن حسابِهِمْ من شيء ، وما من حِسابكَ عليهِمْ من شيء ، فتطردَهُمْ فتكونَ من الظالمين »(١).

. . وهنا يكشف له : أن الإنصراف عنهم يعتبر إساءة يجازى الله عليها ، طالما لا يسأل أىّ من الطرفين عن حساب الآخر ، وعما يرتكبه من ذنوب وآثام ، وطالما : أنه عليه السلام قد قبل من الله مباشرة : التكليف بالدعوة . . وهم قد قبلوا الإيمان بها .

ويتجلى عتاب الرسول عليه السلام : على تأثره كإنسان يعيش فى مجتمع : فيه المستكبرون والمستضعفون . . وفيه أصحاب الزعامة ، والضعفاء والأرقاء : بوجاهة الوجهاء وزعامتهم : فيما يقوله سبحانه لرسوله فى سورة الإسراء :

« وإنْ كادُوا ليَفْتِنُونَكَ عن الذى أوحينَا إليكَ لِتفترِى عَلينَا غَيْرَهُ ، وإذاً لاتَّخَذُوكَ خليلاً .

« ولوْلاَ أنْ ثبّتنَاكَ ( أى بالإيمان ) لَقدْ كِدتَّ تركَنُ إليهِمْ شَيْئاً قَليلاً ( أى تتأثر بهم فيما كانوا يدعونك إليه ، على نحو ما يقوله تعالى فى سورة يونس : « وَإذا تُتْلَى عليهِمْ آياتُنَا بيِّنات قالَ الذينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ( وهم هؤلاء المكبون الماديون ) : ائْتِ بقرآنٍ غيرِ هذا ، أوْ بَدِّلْهُ ( أى بحيث يكون أقرب إلى تأييد اتجاهنا فى الحياة ، وليس إلى نقده ) » .

« إذاً لأذَقنَاكَ ضِعْفَ الحَياةِ ، وَضِعْفَ المَماتِ ثم لا تَجِدُ لك علينا نصيراً »(٢).

---

(١) الأنعام : ٥٢ (٢) الاسراء : ٧٣ — ٧٥

وعلى نحو ما سجل القرآن عتابه لرسول الله ﷺ بشأن ميله فى تأثره بزعامة قومه ووجاهتهم . . يسجل كذلك عتابه له على ميله كرسول لأقربائه واستغفاره الله لهم ، رغم أنه يعلم علماً مؤكداً بما ينتهى إليه مصيرهم ، فى قول الله تعالى : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ، وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ، مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ : أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ »(١) .. وقد سجل عتابه له بعنوان أنه نبي .. وللتابعين له بعنوان : أنهم مؤمنون . لأن وصفه بالنبوة . . ووصفهم بالإيمان : هو مصدر المؤاخذة له ولهم ، فى توجههم إلى الله فى أن يغفر لأقربائهم فى الدم والقبيلة : شركهم وصدهم عن سبيل الله ، طالما هو عليه السلام ملتزم بدعوته . . وهم يلتزمون بإيمانهم وقد انتقلوا جميعاً من تقييم العلاقات بين الأفراد على أساس الروابط المادية القبلية . . إلى الأسس المشتركة للإيمان وللأخوة البشرية ، وهى أسس تصور القيم العليا فى حياة الإنسان .

أما باعتبار أنه إنسان غير نبي . . وأنهم أناسى غير مؤمنين : فليس فى ميلهم إلى أقربائهم بطلب الغفران لهم عن جرائمهم : سبب للمؤاخذة والعتاب .

* * *

● وكذلك يسجل القرآن عتابه على ما يأخذه على قيادته عليه السلام : فى سياسة الحرب مع الأعداء . فيعتب عليه تبنيه لرأى أبى بكر رضى الله عنه فى أسرى « بدر » . وهو أن يفدى الأسرى مقـــابل مال ، يحتاجه المؤمنون إذ ذاك ، بدلا من قتلهم ، تقليلا لعدد المشركين فى الجملة من جانب ، وإرهاباً لهم فى لقاء المؤمنين من جديد فى موقعة أخرى من جانب آخـر ، كما كان يرى عمر رضى الله عنه هـذا الرأى . ويقول الله جل شأنه :

---

(١) التوبة : ١١٣ .

« ما كانَ لِنَبِيٍّ أن يكونَ له أسرَى حتى يُثخنَ فى الأرضِ ( أى حتى تثبت قدماه على الأرض بقوة المدد . . وقوة الإيمان . . وقوة العدة . . وقوة السيطرة والسيادة ) .

« تُريدونَ : عَرَضَ الدنيا ( أى إنكم برأى الإفداء تطلبون الدنيا ، فيما لها من عرض المال ) .

« واللهُ يريدُ الآخرةَ ( أى والله يريد لكم جزاء الآخرة ونعيمها . . وليس عرضا من أعراض الدنيا . وأنتم لا تحصلون على جزاء الآخرة إلا بتحمل المشقة فى سبيل الإيمان بالله والدعوة إليه . وبإقراركم للفدية عدلتم — وأنت نبي — عما يريده الله لكم . . إلى ما يريده المفتنون بالدنيا ، والواقعون تحت تأثير إغرائها ) ،

« واللهُ عزيزٌ حكيمٌ ( ولكن أعراض الدنيا لا توصلكم إلى العزة والسيادة — ولا إلى الحكمة فى التصرف . وعبادة الله عبادة حقة هى : التقرب إليه بمحاكاة صفات ذاته . وقد وصف ذاته — من بين صفات عديدة — بأنه عزيز لا يقهر . . وبأنه حكيم لا يخطىء فى حكمه وتدبيره ) ،

« لوْلا كتاب مِنَ اللهِ سبقَ ( أى لولا قضاء من الله قد اتخذ بشأنك وشأن الموافقين معك على الإفداء ، وهو العفو عنكم جميعاً ) لمسَّكُمْ فيما أخذتُمْ عذابٌ عظيمٌ ( أى لنالكم بسبب هذا الرأى عذاب عظيم فى الدنيا أولا ، وهو استمرار تلقيكم الإهانة من الأعداء الطاغين . . واستمرار تلقيكم سخريتهم واستهزاءهم بدين الله ، وبالدعوة إليه ، وبكم كمستضعفين من عامة الناس ) »[1] .

. . ويعتب عليه أيضاً : تصرفه عليه السلام فى موقعة « أحد » إذ أرسل الطلائع فى جيش المؤمنين يستطلعون أوضاع الأعداء المشركين . وقبل أن تعود هذه الطلائع غنم المؤمنون بعض ما للأعداء من مال ومتاع ، فقسمه عليه السلام على الحاضرين فى ميدان القتال ، دون أن يحجز للطلائع نصيبهم . ويسمى القرآن — فى عتبه على

(١) الأنفال : ٦٧ـ٦٨

الرسول عليه السلام — هذا التصرف منه : غلولا ، تغليظاً له . إذ الغلول فى مدلوله الوضعى : هو الخيانة فى غنائم الحرب . فيقول تعالى .

« مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أن يَغُلَّ ( أى يتصرف فى غنيمة الحرب تصرفاً يشبه الغلول ) ،

« وَمَن يَغْلُلْ يأتِ بما غَلَّ يومَ القيامَةِ ، ثُمَّ توفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ ، وهم لا يُظلمُونَ » (١) .

. . كما يعتب عليه أنه أذن لبعض المنافقين فى التخلف عن الخروج إلى ميدان القتال مع بقية المحاربين . وهذا الإذن كان إبقاء على ستر نفاقهم . ولكن لمصلحة الأمة : فى داخلها . . وفى ميدان القتال مع أعدائها : يجب أن يعرى المنافقون حتى يظهر أمرهم واضحاً ، فلا يصدقون بعد ذلك فيما يقولون . . ولا يعتمد عليهم فى معرفة أسرار المؤمنين ، أو فى مباشرتهم أمراً لمصلحتهم . وقد جاء ذلك فى قول القرآن الكريم ، فى سورة التوبة :

« عفَا اللهُ عَنكَ ( أى ما قمت به كان غير مقبول عند الله ، فعفا عنك الآن ) ،

« لِمَ أذنتَ لهمْ ، حتى يتبيَّنَ لكَ الذين صَدقُوا (أى فى إيمانهم) وَتعلمَ الـكاذبينَ ( أى فيه أيضاً . وهم المنافقون ) .

«لا يستأذنُكَ الذينَ يؤمِنونَ باللهِ واليوم الآخر : أنْ يجاهدوا بأموالِهمْ وأنفسِهمْ ( أى ليسوا هم فى حاجة إلى أن يأخذوا الإذن منك فى التوجه إلى ميدان القتال . . أو إلى إنفاق الأموال فى سبيل الله . فهم يعبرون عن إيمانهم الصادق بالجهاد بالأموال والأنفس ) واللهُ عليمٌ بالمتقينَ .

« إنَّما يستأذنُكَ الذينَ لا يؤمنونَ باللهِ واليوم الآخر ، وارتابتْ قلوبُهُمْ ؛ فَهُمْ فى رَيْبِهِمْ يترددونَ . ولو أرادُوا الخروجَ لأعَدُّوا له عدةً ولـكنْ كرِهَ اللهُ انبعاثَهُمْ ( أى خروجهم إلى ميدان القتال ) فثبَّطَهمْ ، وقيلَ : اقعدوا معَ القاعدينَ .

---

(١) آل عمران : ١٦١ .

« لَوْ خرجُوا فيكم : ما زادوكُم إلا خبالا ( أى ارتباكا فى صفوفكم ) .

« ولأَوْضَعوا خِلالَكُمْ ( وليبثوا بينكم بالتشكيك فى النصر ، وبنشر دواعى الهزيمة ) .

« يَبْغُونَكُمْ الفتنة ( أى يقصدون إلى اضطرابكم ) ، وفيكم سَمَّاعُونَ لهمْ ( أى وفيكم من يسمع لهم ويطيع قولهم . وعندئذ سيكون هؤلاء المنافقين عامل هزيمة لا محالة ) ، واللهُ عليمٌ بالظالمينَ ( وما يقصه الله عليك أيها الرسول «صلوات الله عليه» : يقصه عن علم بأولئكم الملحدين المشركين الذين يعيشون فى الأرض ظلماً وفساداً . فهذا من طبعهم . . وما يتوقع منهم لكم كمؤمنين مخلصين : هو ما يتوقع دائماً من العداوة للإيمان ، ومن أصحابها فى أى وقت )(١) .

. . وما يعلل له القرآن عتابه هنا على الرسول عليه السلام فى إذنه لبعض المنافقين بالقعود مع القاعدين وعدم الخروج إلى ميدان القتال : يعتبر من أهم المبادىء فى سياسة الدولة والجماعة . و نظير المنافقين على عهد الرسول عليه السلام : من يحصلون اليوم من أعداء الأمة الإسلامية على جنسية مجتمع إسلامى من مجتمعاتها . . أو أولئكم الذين يدخلون فى الحاضر فى الإسلام من هؤلاء الأعداء ، تخفيا وراء الإسلام . فهم بين المؤمنين دعاة هزيمة . . ودعاة تشكيك فى إيمانهم وفى قوتهم وفى مصيرهم . . ودعاة تخريب ، وأعوان للأعداء فى الخارج ، وعلى أمن البلاد فى الداخل .

* * *

● ويسجل القرآن — بجانب تسجيل أنواع العتاب — أموراً من خصوصيات الرسول عليه السلام فى أسرته . . وفى حياته . الأمر الذى يدل بالتالى قطعاً على أن

---

(١) التوبة : ٤٣ ـ ٤٧ .

القرآن لم يكن حديثاً ذاتياً للرسول ولا مؤلفاً له . . وبالتالى يدل على تجرد القرآن من العوامل الإنسانية الشخصية ، التى يعتبر التجرد منها فوق مستوى البشر .

فهو يسجل :

١ — قصة زواجه بزينب بنت جحش ،

٢ — وشائعة الإفك ، مع عائشة رضى الله عنها ،

٣ — والخواطر النفسية التى كانت تراود بعض الزوجات للرسول عليه السلام .

. . فعن قصة زينب بنت جحش يقول الله تعالى :

« وإذْ تقولُ للذى أنعمَ اللهُ عليهِ ( أى بالإيمان ) وأنعمتَ عليه (أى بالعتق وفك الرقبة . وهو زيد بن حارثة ، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ) :

« أمسِكْ عليكَ : زوجَكَ ( وهى زينب بنت جحش ، ابنة عمة رسول الله ) ، واتقِ اللهَ ( أى فلا تفارقها ) .

« وتخفِى فى نفسِكَ ما اللهُ مُبديهِ ( وهو تعلق نفس الرسول بها ) .

« وتخشَى الناسَ ( أى فى أن لا يكون ظاهرك تعبيراً عن باطنك . إذ فى الوقت الذى تطلب فيه من زيد أن يمسكها فلا يفارقها . . ترتبط نفسك بها وتود أن يسرحها لتتزوج بها ) واللهُ أحقُ أن تخشاهُ ( وذلك بأن تكون صريحاً وواضحاً ) ،

« فلمّا قضَى زيدٌ منها وطَراً : زوجناكَهَا ، لِكَىْ لا يكونَ على المؤمنينَ حرجٌ فى أزواجِ أدعيائِهِمْ » . ( وقد كان زيد متبنى للرسول ﷺ ، حتى يقول ابن عمر : أن زيد ابن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه إلا : زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : « ادْعُوهم لآبائِهم هُوَ أقْسَطُ عندَ اللهِ »(١) إذا قَضَوْا منهنَّ وطَراً وكانَ أمرُ اللهِ مفعولاً ( ولما تزوجها الرسول قال القائلون فى ذلك الوقت : تزوج حليلة ابنه ،

---

(١) الأحزاب : ٥

فأنزل الله : « ما كانَ محمدٌ أبا أحدٍ من رِجَالِكُمْ ، ولكنْ رسولَ اللهِ وخاتَمَ النبيِّينَ وكانَ اللهُ بكلِّ شيءٍ عَليماً (١) ) .

« ما كانَ على النبيِّ مِنْ حرجٍ فيما فَرضَ اللهُ لَهُ سنةَ اللهِ في الذينَ خَلَوْا مِن قَبلُ ، وكانَ أمرُ الله قَدَراً مقْدُوراً »(٢) .

. . وقد كان تعليق عائشة رضى الله عنها على نزول الوحى بهذه القصة ، أن قالت : « لو كان النبي ﷺ كاتما شيئاً من الوحى لكتم هذه الآية » . والقرآن وإن كان وضع تقييمه لهذا الأمر الخاص فى حياة الرسول بقوله : « ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله لَهُ ، سنَّةَ اللهِ فى الذينَ خَلَوْا مِنْ قَبلُ » .. إلا أن هذا الأمر الخاص قد يستغل ممن يبيتون السوء لرسول الله ولدعوته : كشف القرآن له ، وقد يذهبون فى تأويل الدوافع إليه : إلى أسباب تبعد عن مستوى الإنسانية .. فضلا عن بعدها عن أخلاقية الدعوة التى يدعو إليها .

. . ويسجل أيضاً واقعة الإفك ، فيقول الله تعالى :

« إنَّ الذين جاءوا بالإفْكِ ( وهو اتهام عائشة رضى الله عنها فى عرضها ) : عُصبةٌ مِنْكُمْ ( أى مجموعة منكم ) ،

« لا تحسَبُوه شراً لكم ، بلْ هُوَ خيرٌ لكُمْ ،

« لِكُلِّ امرئٍ منهمْ ( أى ممن شارك فيه ) ما اكْتسبَ من الإثم ، والذى تولَّى كِبْرَهُ منهمْ ( أى ذلك الذى باشر النصيب الأوفر فى اختلاقه وترويجه ) لَهُ عذابٌ عظيمٌ .

« لولا إذْ سمعتموهُ ظنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بأنفسهمْ خيراً ، وقالوا : هذا إفكٌ مبينٌ .

« لولا جاءوا عليهِ بأربعةِ شهداء ، فإذْ لَمْ يَأتُوا بالشهداء فأولئكَ عندَ اللهِ همُ الكاذبونَ .

---

( ١ ) الأحزاب : ٤٠

(٢) الأحزاب : ٣٨ — ٣٨

« وَلولا فضْلُ الله عليكمْ ورحمتُهُ فى الدنيا والآخرةِ لمسّكم فيما أفضتم فيه : عذابٌ عظيمٌ .

« إذْ تَلَقَّوْنه بألسنتِكمْ ، وتقولونَ بأفواهِكم ما ليسَ لَكمْ بهِ علم ، وتحسَبونَهُ هَيِّناً ، وهوُ عندَ اللهِ عظيمٌ .

« ولولا إذ سمعتموهُ قلتُمْ : ما يكونُ لنا أن نتكلمَ بهذَا ، سُبحانكَ : هذا بهتانٌ عظيم »(1) .

. . فهذه الآيات تشير لحديث الإفك فى حق السيدة عائشة رضى الله عنها . وقد وقع فى السنة الخامسة بعد الهجرة ، إثر العودة من غزوة بنى المصطلق . فعندما تقرر الأمر بالرحيل لجيش المسلمين ، لم تكن السيدة عائشة فى هودجها ، وقد كانت فى صحبة الرسول عليه السلام فى هذه الغزوة بعد أن اقترع بين زوجاته . ولم تكن موجودة عند الرحيل . لأنها ذهبت لتبحث عن عقد لها كانت نزعته . ولم يلاحظ عند الرحيل : أنها لم تكن بالهودج ، إذ كان مغلقا وكما ذكرت هى : كانت خفيفة الجسم . فخفة جسمها لا تجعل المساعد لها عند قيام الجمل يشعر بغيبتها إن هى تخلفت . حتى وصلت القافلة إلى الموقف التالى بالطريق . وفى الأثناء وجدت عائشة : أن القافلة رحلت فجلست لتستريح ، على أمل أن يعود أحد ليأخذها ، ممن يكلف بتتبع القافلة ليجمع المتروك من متاعها . حتى جاء الليل ونامت . وفى غداة اليوم التالى وجدها أحد المهاجرين ، وهو صفوان بن المعطل . وقد كان هو المكلف : بتتبع سير القافلة حتى إذا وجد شيئا ترك ، نقله معه . فنزل من على بعيره وأركبها عليه وسار على قدميه يقوده بها .

وهذا الحادث أعطى فرصة للأعداء من المنافقين للتقول فى شأن عائشة بغير حق . ويقال : إنه كان على رأس المتقولين عبد الله بن أبى . إذ عندما مر صفوان بهودج عائشة عليه ، وهو فى جماعة من قومه قال : من هذه ؟ . فقالوا : عائشة . فقال : والله ما نجت

---

(1) النور : ١١ — ١٦

منه ولا نجا منهـــا ، وقال : امرأة نبيـكم باتت مع رجل ، حتى أصبحت ، ثم جاء يقودها .

والآيات القرآنية هنا تعرض لهذا الحادث على أنه ليس شراً لمن أسيء إليهم ، وهم الرسول عليه السلام ... وأبو بكر ... وعائشة .. وصفوان . بل ترى فيه الخير : « لا تَحَسبوهُ شراً لَـكُمْ ، بلْ هوَخيرٌ لـكمْ » . لأنه اتضح أولا : أنه افتراء مبالغ فيه . كما كشف عن أعداء مستترين وراء عنوان الإيمان ، يضمرون عداءهم للدعوة ... ولصاحبها عليه السلام .

وفى سبيل كشف الإفتراء .. والعداوة المقنعة بالإيمان ، أوحى الله بقوله : « لَوْلا إذْ سمعتوهُ ظنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بأنفسِهِمْ خيراً ، وقالوا : هذا إفكٌ مبينٌ ( أى كان ينبغى أن يكون موقفهم من شائعة الإفك هو هذا الموقف ) . لَوْلا جاءوا عليهِ بأربعةِ شهداء ، فإذْ لَمْ يأتُوا بالشهداء فأولئكَ عندَ اللهِ هُمُ الـكاذبونَ » . والمعنى : ألم يكن الأولى بكم ـ أيها المؤمنون ـ أن تكون لديكم فى أنفسكم صورة خيرة عن علاقات بعضكم ببعض ، تدفع من أول الأمر : هذا الكذب ، وتعلنون على رءوس الأشهاد : أنه افتراء واضح ؟ وألم يكن لديكم علم بأن مثل هذا الأمر — وهو القذف والإتهام فى العرض — لا يثبت إلا بأربعة شهداء ؟ . فإذ لم يكن هناك شهداء أربعة فهو كذب فى ذاته ، يحد قائله ومروِّجه ؟ .

ولـكن مع ذلك استغل هذا الحادث أسوأ استغلال ، حتى ضاق صدر الرسول عليه السلام بعائشة رضى الله عنها . . وفترت العلاقة بينهما ، مدة من الزمن ، إلى أن كشف الوحى حقيقة الأمر .

ولو تدخل العامل الشخصى فى كتابة القرآن ما ترك إنسان ما لقلمه : أن يكتب عن علاقته بمن هى أحب إليه من زوجاته ، مثل ما سجل القرآن هنا فى وحيه للرسول عليه السلام فى قصة الإفك واتهام عائشة رضى الله عنها ، فى عرضها .

كما يسجل القرآن — بجانب قصة زينب بنت جحش ، وقصة الإفك بالنسبة لعائشة، مما يدخل فى نطاق خصوصيات الأسرة — ما كان يراود بعض زوجاته من الرغبة فى الاستمتاع بمتع الدنيا . . حتى جاء الوحى يطلب للرسول عليه السلام أن يخير زوجاته : بين البقاء معه وتحمل قسوة الحياة فى سبيل الدعوة . . أو المفارقة وعدم الالتزام بوضعها القائم . وقد جاء ذلك فى قول الله تعالى : « يَا أَيُّها النبيُّ » :

« قُلْ لأزواجِكَ : إنْ كنتنَّ تُردنَ الحياةَ الدنْيا ، وزينَتَها (كما يحكى : أن بعضهن أردن الثياب .. وزيادة النفقة . وضاق بما طلبن : صدر رسول الله عليه السلام). فَتعَالَيْنَ أُمَتِّعكُنَّ ( أى أعطيكن متعة الطلاق ) وأُسرحْكُنّ سَراحاً جميلاً ( أى أطلقكن فى إحسان وتهذيب ) .

«وإنْ كُنتنَّ تُردنَ اللهَ، ورسولَهُ ، والدارَ الآخرةَ ( أى تردن القيم العليا وتكن فى ذلك قدوة حسنة ، وتحصلن فى الآخرة على جزاء الله ) فإنَّ اللهَ أعدَّ للمُحسناتِ منكنَّ ( وهن اللائى يحسن بالصبر فى سبيل الدعوة ، وبمساعدة الرسول عليه السلام على أدائها ، ويمنعهن عنه كل ضيق صدر ، بسبب مشاكل الحياة المادية ) أجراً عظيماً»[1] .

والرغبات المادية التى كانت تراود بعض زوجات الرسول عليه السلام : هى رغبات بشرية طبيعية لا يدل كشفها للرأى العام على شىء غير عادى فى خصوصيات أية أسرة ، لو لم يكن ربها .. ولو لم يكن الزوج هو رسول الله ، بهذا العنوان . أما وإنه الرسول عليه السلام فالمفروض أن تأخذ كل زوجة له : نفسها بسلوك ، يعد مثلا طيباً لغيرها من المؤمنات . ولذا جاء إنذار الله لهن قاسياً : فى قوله :

---

( ١ ) الأحزاب : ٢٨ — ٢٩

« يا نساء النبيّ ! :

« من يأتِ منكنّ بفاحشةٍ مبيّنةٍ يضاعَفْ لها العذابُ ضِعفينِ ، وكان ذلك على الله يسيرا .

« وَمَن يَقنتْ منكنّ ( أى تطع ) للهِ ، ورسولِهِ ، وتعملْ صالحاً نؤتها أجرَها مرّتينِ ، وأعتدنا لها رزقاً كريماً » (١).

* * *

والآن لدينا دليلان واضحان — وهما تسجيل العتاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سياسته : فى الدعوة . . وفى سياسة الحرب مع الأعداء من جانب . . والكشف عن بعض الأسرار الخاصة فى أسرته عليه السلام، من جانب آخر — هذان الدليلان يدلان : على أن القرآن تجرد عن كل البواعث والميول الشخصية . . وأنه موضوعى ، بقدر ما يبعد عن الأمور الذاتية . وتجرد أى عمل عن البواعث والميول الشخصية لا يدل فقط على موضوعيته . وإنما يدل مباشرة على تفوقه .. إلى درجة الإعجاز.. وبالتالى على صلاحيته التامة لبناء الحضارة الإنسانية .

* * *

. . موضوعية المبادىء :

فإذا أضيف إلى هذين الدليلين .. أو إلى هاتين الظاهرتين : موضوعية مبادئه ، وتجردها تجردا تاما عن الميول والبواعث الشخصية .. فإن إعجاز القرآن يكون عندئذ حقيقة ملموسة ، لاينكرها إلا من لا يفرق بين الموضوعى .. والشخصى :فى التفكير .. وفى العمل الإرادى . . وفى تقييم الجمال فى الحياة . ومن هذه المبادىء الموضوعية :

* * *

أولا : إن دعوة القرآن تؤمن برسالة الحضارة السابقة، قبل عهد الرسول عليه السلام.

---

(١) الأحزاب : ٣٠/٣١ .

يقول الله تعالى :

« يا أيُّها الذينَ آمنوا : آمِنوا باللهِ، ورسولِهِ ، والكتابِ الذى نَزَّلَ على رسولِهِ ، والكتابِ الذى أَنْزَلَ مِنْ قبلُ ،

« وَمَن يَكفرْ باللهِ ، وملائِكتِهِ ، وكتبه ، ورسلِهِ ، واليوم الآخرِ ، فقد ضلَّ « ضلالاً بعيداً » (١) . .

.. فسوى فى الإيمان برسول الله محمد عليه السلام الآن ، وبالرسل السابقين عليه .. وبالكتاب الذى هو القرآن ، والموحى به إلى رسول الله ، وبالكتاب الآخر السابق عليه فى أى عهد من عهود الرسالة . لأن رسالة الله فى أى عهد تستهدف ما تستهدفه أية رسالة . وهو معاونة الإنسان على الانتقال من مستوى الجاهلية إلى مستوى الحضارة الإنسانية : يا بَني آدمَ : إمّا يأتينَّكم رسلٌ منكمْ ( فى أى عهد ) يقصّونَ عليكمْ آياتِى ، فمنِ اتّقَى ( فمن تجنب انحرافات الجاهلية ) وَأَصْلحَ ( بسلوك الهداية الإلٰهية . . وهى الطريق إلى الحضارة البشرية ) فلا خوفٌ عليهِمْ ولا هُم يحزَنونَ . والذينَ كذَّبوا بآياتِنَا ، واستكبروا عنها أولئكَ أصحابُ النارِ هُمْ فيهَا خالدونَ » .. (٢)

وثانيا : إنها تدعوا إلى الترابط بين الأفراد على أساس القيم العليا فى حياة الإنسان.. وليس على أساس العرق . . أو القبيلة . يقول الله تعالى :

« واعْتصموا بحبلِ اللهِ جميعاً ، ولا تفرّقُوا ( وحبل الله هو هدايته التى تتمثل فى القيم الإيمانية العليا المستمدة من صفات الله سبحانه وتعالى . والاعتصام بهذه القيم هو الترابط والتماسك على أساس منها )

« واذْكروا نعمةَ اللهِ عليكمْ إذْ كنتمْ أعداءً ( وذلك بسبب الترابط على أساس القبيلة والدم فيها . وهو رباط مادى ) فألّفَ بين قلوبِكمْ ( على أساس الإيمان بالله مركز القيم العليا ) فأصْبحتمْ بنعمتِهِ إخواناً ( أى فى الإنسانية والحضارة البشرية ) ،

---

(١) النساء ١٣٦

(٢) الأعراف : ٣٥/٣٦ .

« وَكنتمْ ( أى على عهد القبلية وتقاليدها ، والتمسك بهذه التقاليد ) عَلى شَفا حفرةٍ منَ النارِ فأنقذكمْ منها ( فالقبلية كانت مصدر الحروب والخصومات بين القبائل بعضها وبعض . ولكن بفضل الإيمان جاء السلام والصفاء النفسى للعلاقات بين أفرادها ) كذلكَ يُبينُ اللهُ لكمْ آياتِهِ لعلَّكُمْ تهتدونَ ( وهداية الناس بآيات الله وكتابه هى اتباع خطوط الحضارة الإنسانية فيه ، والابتعاد عن ضلال الجاهلية ) »(١) . . وكذلك يقول فى فضل الله على تآلف المؤمنين وترابطهم ، بعد الخصومات التى كانت مستمرة بينهم ، وتطمين الرسول على تماسك المؤمنين فى مواجهة مؤامرة الأعداء وخداعهم :

« وألّفَ بينَ قلوبِهِمْ ( أى قلوب المؤمنين ) لَوْ أنفقتَ ما فى الأرضِ جميعاً ما ألفتَ بينَ قلوبِهِمْ ، ولكنَّ اللهَ ألّفَ بينَهُمْ ( برباط العقيدة والإيمان بدلا من الرباط المادى وهو رباط الدم والقرابة ) إنه عزيزٌ حكيمٌ »(٢) .

. . ولا شك أن الدعوة إلى الترابط على أساس الإيمان بالقيم العليا التى تمثل سمو الحياة البشرية : فوق لحمة الأسرة . . والقبيلة .. والشعب : هى دعوة خالصة لوجه الإنسانية ، ومجردة عن كل أثر لأى عامل شخصى .

**وثالثا:** إنها تؤثر الاستمرار فى الترابط والبقاء فى دائرته على أساس هذه القيم .. وليس على أساس العصبية الأسرية .. والقبلية .. والشعوبية . يقول القرآن الكريم :

« يا أيُّها الذينَ آمنوا :

« لا تتَّخذوا آباءَكُمْ ، وإخوانَكُم : أوْلياء ( أى أصدقاء يخلص بعضهم لبعض .. ويشير بعضهم على بعض ) إنِ اسْتحبوا الكفْرَ على الإيمانِ ( أى إن آثروا البقاء فى الجاهلية .. ولم يرغبوا فى الإنتقال من مستواها .. إلى مستوى الحضارة البشرية ) ،

« ومنْ يتولَّهُمْ منكُمْ ( أى يصادقهم منكم ) ، فأولئك هُمُ الظالمونَ .

« قُلْ : إنْ كانَ آباؤُكم ، وأبناؤُكُمْ ، وإخوانُكمْ ، وأزواجُكم ، وعشيرتُكُمْ ( والعلاقة

---

( ١ ) آل عمران : ١٠٣ .　　( ٢ ) الأنفال : ٦٣ .

بين هؤلاء جميعاً هى علاقة الدم والقرابة الأسرية ) وأموال اقترفتموها ، وتجارةٌ تخشونَ كسادَها ، ومساكنُ ترضونَها : أحبَّ إليكمْ من اللهِ ، ورسولِهِ ، وجهادٍ فى سبيلهِ ( أى إن كنتم تؤثرون : العصبية الأسرية .. أو المحافظة على المال ، أو على إنمائه .. أو الرتابة فى المعيشة — و هى جميعها تصور خطوط الجاهلية — على القيم العليا فى الحياة ، التى يمثلها الإيمان بالله ، وبرسوله .. كما يمثلها الجهاد بالمال أو بالنفس فى سبيل هذه القيم ، والتحول إلى مستوى الحضارة البشرية ) فَتَرَبَّصوا حتى يأتىَ اللهُ بأمرِهِ ( أى انتظروا حتى يأتى الأجل المحدد لسقوط مجتمعكم ، وقيام مجتمع إنسانى حضارى آخر بدلا منه ) والله لا يهدى القومَ الفاسقينَ[1] ( وطالما لا يهدى الله أولئكم الذين يخرجون فى وضوح : عن الطريق السوى فى الحياة : فإنهم لا يستقرون فى رياسة ولا فى زعامة : « وَإن تتولّوا يستبدلْ قوماً غيرَكُمْ ، ثم لا يكونوا أمثالَكُمْ »[2]. بل يخلفهم أولئكم الذين يؤمنون بالله وبالقيم العليا فى الحياة ) .

.. واستمرار الترابط على أساس من القيم العليا إن كان ظاهرة تدل على التجرد عن العوامل الشخصية .. فإن هذا الترابط على أساس منها أبقى وأنقى من الترابط على أساس العصبية .. أو المال . فالعصبية فى الأولاد ، أو المال فى جمعه واكتنازه : كلاهما ينطوى على عامل التفرقة ، كما ينطوى على عامل التجميع . يقول الله سبحانه :

« يا أيُّها الذينَ آمنوا :

« إنَّ مِنْ أزواجِكُمْ ، وأولادِكُمْ : عدواً لكمْ ، فاحذروهُمْ ، وإنْ تعفوا ، وتَصْفحوا ، وتغفِروا فَإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ..

« إنَّما أموالُكُمْ ، وأولادُكُمْ فتنةٌ ( أى مصدر تجربة واختبار ) واللهُ عندَهُ أجرٌ عظيمٌ .

« فَاتقوا اللهَ ما استطعتمْ ،

---

(١) التوبة : ٢٣ — ٢٤ .

(٢) محمد : ٣٨

« واسمعوا ، وأطيعوا ،

« وأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ) والمفلحون إذن هم الذين يترابطون على أساس الإيمان بالقيم العليا .. وليس على أساس العصبية .. أو المال )»[1] .

رابعاً : إنها تدعو إلى توفير الإعتبار الإنسانى ، والكرامة البشرية لكل فرد ، بغض النظر عن : اللون .. والنسب .. والعرق .. والجاه .. والمال : يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا :

« لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن .

« ولا تلمزوا أنفسكم ( أى لا يعب بعضكم بعضاً ) ،

« ولا تنابزوا بالألقاب (أى لا تداعوا بالألقاب المسيئة التى يحس المدعو بها : بأذى أو شين .. أو ذم له عندما يدعى بها ) ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ( فالإيمان من شأنه أن يسوّى بين المؤمنين فى الاعتبار البشرى . والتداعى بالألقاب المسيئة من شأنه أن يعيد الفجوة فى هذا الاعتبار بينهم . وإذن التنابز بالألقاب : فسق وخروج عن مطلوب الايمان ) ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون .

« يا أيها الذين آمنوا : اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم ،

« ولا تجسسوا ( أى لا تبحثوا عن أخبار بعضكم بعضاً ) ،

« ولا يغتب بعضكم بعضاً (والغيبة : أن يقال فى الرجل من خلفه ما فيه من عيب. فإذا قيل من خلفه ما ليس فيه : فهو بهت ) ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم »[2] .

---

(1) التغابن : ١٤ — ١٦

(2) الحجرات : ١١ — ١٢

•• ومن مستلزمات توفير الاعتبار البشرى لكل فرد فى المجتمع : أن ينتهى الإنسان فيه :

عن أن يسخر بغيره .. وعن أن يعيبه .. وأن يلقبه بما يكره .. وعن أن يحدد موقفه منه على أساس الظن وحده .. وعن أن يتجسس عليه ، ويبحث ليعرف أسراره .. وأن يقول من خلفه ما فيه من نقص وعيب. لأن كل واحد من ذلك من شأنه : أن يعكر صفو العلاقات الطيبة التى أحدثها الإيمان بالله ، والإنتقال المشترك إلى مستوى الحضارة الإنسانية . ويقول الله تعالى أيضاً :

« يا أيُّها الذينَ آمنوا :

« لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ، حتى تستأنسوا ( أى حتى تحسوا بالأنس من سكان هذه البيوت وبالترحيب بقبولكم فى منازلهم ) وتُسَلّموا على أهلها ، ذلكُمْ خيرٌ لكم ، لعلّكم تذَكَّرون .

« فان لم تجدوا فيها أحداً ، فلاَ تدْخُلوها حتى يؤذَنَ لكُمْ ،

« وإن قيلَ لكُمُ : ارجعوا فارجعوا ، هو أزكىَ لكُمْ ، واللهُ بما تعملونَ عليمٌ .

« ليس عليكُمْ جُناح : أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونةٍ ، فيها متاعٌ لكم، والله يعلم ما تُبدونَ وما تكتمون »(١) .

•• وضمن القرآن بذلك : حرمة لسكن الشخص ، بعد أن أكد حرمة الشخص ذاتها . وهذا •• وذاك من عوامل توفير الكرامة الإنسانية للشخص فى المجتمع.

خامسا : أنها تدعو إلى التفاضل بين الأفراد على أساس من التمايز بينهم فى مستوى الإنسانية وحده •• وليس على أى أساس مادى آخر ، كالعرق •• أو القبيلة . يقول تعالى :

---

(١) النور : ٢٧ — ٢٩ .

« يا أيها الناسُ :

« إنّا خلقناكمُ من ذكرٍ وأنثى ،

« وَجَعلناكمُ شعوباً ، وقبائلَ : لِتَعارفوا ( أى إذا كنتم وجدتم جميعاً من ذكورة وأنوثة ، وتساويتم فى ذلك . . ثم جعلتم فصائل من شعوب وقبائل ، وارتبطتم برباط الدم والقربى بناء على التناسل فيما بينكم . . فليس مؤدى ذلك : أن تختلفوا . . وتتصارعوا فيما بينكم . . وأن يخاصم بعضكم بعضاً . وإنما مؤداه : أن تجتمعوا على رباط آخر ، فوق رباط الدم والقربى . وهو رباط الإيمان بالله ، مركز الحضارة الإنسانية . فإذا انتقلتم عن طريق الهداية . . إلى المستوى الحضارى فى تفكير الإنسان وسلوكه : ترابطتم على أساس القيم العليا فى حياة الإنسان . والترابط على أساسها : أدوم وأنقى ) ؛

« إنّ أكرمَكمُ عندَ اللهِ أتقاكم ( ولذا : فالتفاضل بينكم منذ الآن يكون بمقدار المستوى فى تحقيق هذه القيم الذى يبلغه أى واحد منكم . وليس على الأساس المادى السابق من : المال .. والجاه .. والزعامة .. وعصبية الأولاد .. وقرابة الدم فى فى الحسب والنسب) إنّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ (والله وحده هو الذى يعلم ما أبقى وأنقى فى حياة الإنسان ، مما هو مشتت ومفرق .. وهو مع علمه التام : الخبير أيضاً بحقائق كل ما يوصى به ) »[1] .

**سادساً** : إنها : تبرز المسئولية الفردية . وعدم قبول المسئولية الجماعية :

« قُلْ :

« يا أيُّها الناسُ :

« قد جاءكمُ الحقُّ من ربكم ،

« فمن اهتدَى فإنما يهتدِى لنفسهِ ،

« ومن ضَلَّ فإنما يضلُّ عَلَيْها .

---

(١) الحجرات : ١٣ .

« وما أنا عليكم بوكيل »[1] .

.. فأبرز مسئولية الفرد في إيمانه بالله.. وانتقاله بذلك إلى المستوى الحضاري الإنساني، في التفكير .. وإدراك الجمال في الحياة والعمل الإرادي . وكذلك أبرز مسئوليته عن حيرته وبقائه في جاهليته . والرسول المبلغ لوحي الله لا تتجاوز رسالته : تبليغها إلى الأفراد . وبذلك لا يشارك غيره : المسئولية في أي إتجاه يسلكه ، ويقول كذلك :

« ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى .

« وان تدعُ مُثقلَةٌ إلى حملها ( أي أن دعت نفس تحس بثقل حملها من الذنوب : غيرها لتعاونها فيما تحمل فتشاركها بعض ذنوبها ) لا يُحملْ منه شيء ولو كانَ ذا قربى ( فلا تستجاب لما طلبت وتظل هي متحملة وحدها ما ارتكبته من أخطاء وذنوب )[2] .

وكما يقول :

« وقالَ الذينَ كفرُوا لن نؤمنَ بهذا القرآنِ ولا بالذى بينَ يديه ( وهو كتاب عيسى وموسى ) .

« ولو ترى إذِ الظالمون موقوفونَ عند ربهم ، يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ : القولَ :

« يقولُ الذين استُضعِفوا للذين استكبَروا : لولا أنتم لكنّا مُؤمنين .

« قال الذين إستكبروا للذين استُضعِفوا : أنحنُ صددنا كم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين .

« وقالَ الذين استُضعِفوا للذين استكبروا : بلْ مكرُ الليلِ والنهارِ، إذ تأمرونَنا أن نكفُرَ بالله ونجعلَ له أنداداً ( أي كانت محاولاتكم الخبيثة أنتم أيها المستكبرون ، المستمرة بالليل والنهار : هي التي أضلتنا عن الهدى بعد إذ جاءنا القرآن ) ،

«وأسرُّوا الندامةَ لمَّا رأو العذاب ، وجعلنا الأغلالَ في أعناقِ الذين كفروا ( أي جميعاً ما بين مستكبرين .. ومستضعفين ) هلْ يُجزون إلاّ ما كانوا يعملونَ »[3].

---

(١) يونس : ١٠٨ . (٢) فاطر : ١٨ (٣) سبأ : ٣١ — ٣٣

.. ففى هذا الحوار بين الزعماء والرؤساء من جانب .. والتابعين لهم فى المجتمع من جانب آخر : تتجلى المسئولية الفردية .. وأن ليس للإنسان عذر ما فيما يقترفه . وبالأخص فيما يبقيه فى دائرة الجاهلية ، ويحول بينه وبين الانتقال إلى المستوى الحضارى البشرى. وربما كان يفهم.. أو يعد مقبولا فى إطار الإعتذار : قبول المستضعفين فى المجتمع : نصح المستكبرين ، أو أمرهم بالإنصراف عن هداية الله لأنهم واقعون تحت تأثيرهم . ولكن جعل الأغلال فى أعناق الفريقين كجزاء لهما لم يترك شبهة فى المسئولية الفردية التامة لكل فريق منهما .

سابعا : إنها : تدعو إلى أن تكون سرية أى اجتماع بين اثنين فأكثر على الخير وحده . . أى على عدم الاعتداء على الأقل على الآخرين ، يقول تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا :

« إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ، ومعصيت الرسول ،

« وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذى إليه تحشرون »(١) .

. . فينهى عن التآمر وتدبير الإعتداء . . ويأمر بأن تكون سرية أى اجتماع متمحضة للخير والمصلحة العامة . يؤثر السلام والصفاء فى علاقات الأفراد فى المناجاة وأحاديث الناس فى سرية ، على التدبير للهدم : فى « الخلايا . . وتحت الأرض » .

ثامنا : تدعو إلى أن تكون الرغبة فى السلام . . مصاحبة للإعداد لرد الإعتداء أى لا يكون هناك إعداد لقوة المجتمع ، غير مشفوع هذا الإعداد بإعداد نفسى آخر للسلام . يقول تعالى :

« وأعدوا لهم ( أى للأعداء ) ما استطعتم من : قوة ( وهى القوة العددية .. والنوعية ) ومن رباط الخيل ( وهى الحصون والقلاع ) ترهبون به عدو الله وعدوكم

(١) المجادلة ٩ .

(أى أن هدف هذا الإعداد ليس : الإعتداء .. ولا الفتح والتوسع . وإنما حمل العدو على التفكير والتروى عندما تسول له نفسه الإعتداء .. وإنما إرهابه ) وآخرينَ من دُونِهِمْ لا تعلمونَهُمْ ( أى ومع أعداء الله وأعداء المؤمنين الصرحاء المكشوفين لكم : أعداء آخرون متسترون من ورائهم . وهم معهم بالمشاركة فى إعدادهم وفى دفعهم ضد المؤمنين) اللهُ يعلمهم ( لأنه يعلم الظاهر والباطن .. والصريح والخفى . والمنافقون فى عداد هؤلاء الأعداء المتسترين ) ،

« وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوفَّ إليكُمْ ، وأنتم لا تُظْلَمونَ ( والخطاب للأثرياء فى الأمة للإنفاق على إعدادها فى مواجهة الأعداء ، إعداداً مادياً ) .

« وإن جَنَحُوا للسَّلم فاجنحْ لها ، ( وهنا يقرن القرآن حمل المؤمنين على الميل إلى السلام وقبوله ، بطلب الإعداد لأنفسهم لمواجهة عدوان الأعداء ، مما يُعبر هذا القرآن على أن الهدف الأصيل للدعوة إلى الإسلام : هو السلام . ولكنه سلام القوى ، وليس سلام الضعيف .. سلام المتيقظ ، وليس سلام الغافل .. سلام من يضحى بمتع الدنيا ليعيش عزيزاً ، وليس سلام من يستذل من أجل الاستمتاع بهذه المتع ) وتوكّلْ على اللهِ ، إنه هو السميعُ العليمُ ( ولكى تشجع الدعوة الإسلامية المؤمنين إلى الميل إلى السلم وإلى قبوله : تطلب إليهم أن يعتمدوا على الله عند قبولهم للسلام ، ويبعدوا عنهم القلق من أجل التفكير فى خداع الأعداء وغدرهم . فالله سميع للكل همسة منهم .. وعليم بمجرى كل أمر يصدر عنهم . وطالما المؤمنون يأخذون أنفسهم بما يدعوهم الله إليه من غير تقصير .. فخداع أعدائهم لا ينال منهم إطلاقا ) .

« وإنْ يريدوا أن يخدعوكَ فإن حسبَكَ اللهُ ، هو الذى أيَّدكَ بنصره وبالمؤمنين ( أى فالله هو المتكفل برد خداع الأعداء وبنصر المؤمنين عليهم . إذ خديعة الأعداء متسترين مكشوفة للمؤمنين ، إذا لم يوالوهم .. وإذا أخذوا منهم حذرهم .. وبقوا فى قوة فى مواجهتهم .. وآثروا ولاء بعضهم لبعض ، على أن يميلوا إليهم . وطالما تكتشف الخديعة فأثرها سلبى ) » (١).

الانفال ٦٠/٦

**تاسعا** : تدعو إلى تكافؤ : إنتاج الإنسان وعمله من أجل الرزق فى الدنيـا من جانب .. وعبادته لله من جانب آخر ، يقول تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا :

« إذ نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوْا إلى ذكرِ الله ، وذروا البيع ، ذلكمْ خيرٌ لكم ، إن كنتم تعلمون .

« فإذا قضيتِ الصلاةُ فانتشروا فى الأرضِ ، وابتغوا فضل مِنْ الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » (١) .

.. فسوى القرآن فى الأمر هنا : بين وجوب أداء صلاة الجمعة إذا حل وقتها .. ومباشرة السعى بعد الانصراف من أدائها من أجل الرزق فى ضروب الحياة المختلفة : تجارة .. أو زراعة .. أو صناعة .. أو إدارة وإشراف على عمل آخر . كما أوضح أن العبادة والمحافظة عليها مقدمة ضرورية لنجاح الإنسان فى حياته « واذكُروا اللهَ كثيراً لعلكم تفلحونَ » . سواء أكان هذا النجاح فى تحصيل الرزق .. أو فى حسن العلاقة بين إنسان وآخر ، فى مجتمعه .

وهذه المساواة فى الحرص على الأداء : بين العبادة .. والسعى من أجل الرزق : تعطى الدليل على إيجابية الدعوة الإسلامية فى حياة الأنسان .. وعلى أن التوكل على الله الذى يطلب من الإنسان المؤمن بالله : ليس طريقاً سلبياً . أى ليس تواكلا ، أو أغضاء عن العمل . كما تعطى الدليل من جانب آخر على أن المتع المادية ليست أموراً تنبذ إنما هى أهداف تحصل ليستمتع بها الإنسان ، ولكن لا ليسرف فى الاستمتاع بهـا : « وكُلوا ، واشْربوا ، ولا تُسْرفُوا ، أنه لا يحب المسرفين » (٢) .

**عاشرا** : إنها تدعو إلى أن يكون : العدل .. والشورى .. والاطمئنان إلى عدم اتباع الهوى ، من مقومات الحكم الصالح ، فيقول القرآن الكريم : « إنّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ

---

(١) الجمعة : ٩ ـ ١٠ (٢) الأعراف : ٣١

والإحسان » (١) .. فيأمر بالعدل فى كل جانب من جوانب الحياة . ثم على وجه الخصوص يأمر بالعدل فى الحكم . فيقول :

« إن الله يأمُرُكم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ( وهى أمانة العمل وأداؤها بالدقة فيه .. وأمانة العهد والوعد ، وأداؤها بالوفاء بأى منها . وأمانة الأسرة وأداؤها بالإحسان فى رعايتها .. وأمانة الرأى وأداؤها بالنصح فيه .. وأمانة السلوك وأداؤها بالاستقامة فيه ) .

« وإذا حكمتم بين الناس : أن تحكموا بالعدل » (٢) .

.. ويأمر بالعدل فى المعاملة فيقول :

« وَأوفوا الكيلَ ، والميزانَ بالقسط ، لا نُكَلِّف نفساً إلا وُسْعها » (٣) .

وبالعدل فى القول ، فيقول :

« وَإذا قلتم فأعدلوا ، ولو كان ذا قربىَ » (٤)

.. وبالعدل فى الشهادة ، فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا :

« كونوا قوّامين لله ( مقيمين لأوامره ومطيعين لها ) ،

« شهداء بالقسط ، ولا يجرمنّكم شنآنُ قوم على ألاّ تعدلوا ( أى لا يحملنكم بغض قوم بسبب كفرهم مثلا على عدم العدل نحوهم فتعتدون عليهم) أعدلوا ، هوَ أقربُ للتقوى ، واتقوا اللهَ ، إنّ اللهَ خبيرٌ بما تعملون » (٥) .

.. وبالعدل : بين ما يفعله الإنسان .. وما يتحدث عنه ؛ فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا :

---

(١) النحل : ٩٠ (٢) النساء : ٥٨ (٣) الأنعام : ١٥٢
(٤) الأنعام : ١٥٢ (٥) المائدة : ٨

« لِمَ تقولونَ مالا تفعلونَ ؟ . كَبُرَ مقتاً عندَ الله : أن تقولوا مالا تفعلونَ .

« إن الله يحبُّ الذين يقاتِلُون فى سبيله صَفّاً ، كأنّهم بنيانٌ مرصوصٌ ( أى لا يحب الاعوجاج بالتحدث عن فعل كالمشاركة فى القتال مثلا .. وعدم وقوع هذا الفعل ) »[1] .

.. وبالعدل فى العهود ، والعقود : بالوفاء بها :

« وأوْفُوا بعهدِ اللهِ إذا عاهدتمْ ( أى مايجب أن يطلب فيه الوفاء من العهود هو ذلك النوع منها الذى يستهدف الخير .. والمصلحة العامة .. أو هو عهد الله ) »[2] .

« يا أيها الذين آمنوا : أوفُو بالعقودِ »[3] ..

.. أما الشورى فيتحدث عنها القرآن فى صفات المؤمنين ، على أنها جزء لايتجزأ من قوام حياتهم ، فيقول :

« .. والذين استجَابوا لرِّبهمْ ، وأقامُوا الصلاةَ ، وأمرُهُمْ شورَى بينهم ( وهو أمر الأسرة بين أفرادها .. وأمر الجيران بعضهم مع بعض .. وأمر الناس مع ولاتهم وحكامهم ) »[4].

.. كما يطلب إلى الرسول عليه السلام باعتباره قائداً وحاكماً : أن يشاور من جديد : النفر من المؤمنين الذى كان من أسباب هزيمة المسلمين فى غزوة « أحد » بعد أن يعفو عنهم .. ويستغفر لهم الله ، على ماوقع منهم من خطأ ، فيقول :

« فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لَهُمْ ( أى لا تقسو عليهم واستمد موقفك هذا إزاءهم من صفة الرحمة التى هى بالغة حد الكمال فى المولى سبحانه ) .

---

(١) الصف ٢ ـ ٤
(٢) النحل ٩١
(٣) المائدة ١
(٤) الشورى ٣٨

« ولو كنتَ فظاً غليظَ القلبِ لانفَضُّوا من حولكَ ، فاعفُ عنهم واستغفرْ لهم »
« وشاورْهمْ فى الأمرِ ( أى فى شأن القتال عند خروجك مرة مقبلة مع المؤمنين جميعاً إلى مواجهة الكفار ) .

« فإذا عزمتَ فتوكّلْ على اللهِ ، إنّ اللهَ يُحبُّ المتوكلينَ »(١) .

. . فمع خطأ هذا النفر فى شأن المؤمنين جميعاً : فإن القرآن يطلب من الرسول عليه السلام من جديد : أن يستطلع رأيه . ولو أن خطأهم كان نقداً ذاتياً لوضح الأمر فى طلب مشاورتهم من جديد . ولكنه خطأ كان يرجع إلى الإنصراف عن أهداف الدعوة فى ميدان القتال .. كان يعود إلى مغانم الحياة الدنيا فيه . فطلب استطلاع رأيهم مع ذلك يدل على قيمة الشورى فى حياة الناس وأثرها فى الترابط فى العلاقات بين أفرادهم .

**حادى عشر** : إنها : تستنكر الاحتراف بالقيم العليا :

إذ أخطر شىء على هذه القيم هو الاحتراف .. وجعلها وسيلة ، وليست هدفاً فى ذاته . والاحتراف بها يكون عادة من الداعين لها ، والحاملين لواء نشرها . وهنا يحذر القرآن أن يتحول أمر المؤمنين إلى الاحتراف بهذه القيم ، على نمط ما كان عليه أحبار اليهود .. ورهبان النصارى ، كما جاء فى قول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنو :

« إنّ كثيراً من الأحبارِ ، والرهبانِ ، ليَأكُلونَ أموالَ الناسِ بالباطلِ ( وذلك عن طريق تدخلهم فى تأويل ما يقع عليه : اسم الحلال .. أو اسم الحرام .. أو عن

---

(١) آل عمران ١٥٩

طريق إخفائهم بعض تعاليم الكتاب .. وإظهار البعض الآخر ، على أن يؤجروا على ما يقولون ) .

« وَيَصُدُّونَ عن سبيلِ اللهِ ( واحترافهم بالقيم العليا .. وأكلهم أموال الناس بالباطل عن طريق هذا الاحتراف : هو فى حقيقة أمره : صد ، وإبعاد عن سبيل الله . لأن الاحتراف الآن سبيل معوجة . بينما سبيل الله هى دائما السبيل السوى) »[1] .

والقيم العليا التى يتجنب الاحتراف بها ليست فقط هى التى يحملها أصحاب رسالة الدين . بل هى التى يحملها فى الأمة كذلك غيرهم : كالأطباء .. والمعلمين .. والقضاة .. ورجال الإدارة .. الخ

فالأطباء .. والمعلمون يحملون عِلم الانسانية فى تطبيب المرضى .. وتعليم الناشئة. فإن هم استغلوا حاجة المريض إلى الشفاء .. والصبي إلى التعليم ، وجعلوا العلاج والتعليم حرفة للاتجار والإثراء : كانوا كالأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل .

والقضاة .. ورجال الإدارة يحملون عِلم العدل وإحقاق الحق فى قضائهم .. وإدارتهم . فإن هم احترفوا بالعدل وقبلوا الرشوة كانوا كذلك كالأحبار والرهبان فى أكل أموال الناس بالباطل .

ورجال الجيش يحملون عِلم الدفاع عن الأمة وعن قيمها العليا وتثبيت شخصيتها المستقلة . فإن هم أثروا من حرفة الدفاع ولم يتمثل فى نفوسهم الإيمان القوى بالدفاع عما يجب أن يدافعوا عنه .. كانوا كذلك كالأحبار . . والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل .

---

(١) التوبة ٣٤

وهكذا .. كل من يحمل قيمة عليا فى عمله و نشاطه واحترف بها : فهو آكل لأموال الناس بالباطل .

**ثانى عشر** : إنها : تدعو إلى الرجوع بالخصومة فى الرأى . إلى المصدر الأصيل للدعوة .. وليس لأقوال بعض المؤمنين فيه . فيقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا :

« أطيعوا اللهَ ، وأطيعوا الرسولَ ( وذلك باتباع كتاب الله .. وقدوة الرسول عليه السلام : قولا . . أو عملا ) ،

« وَأولِى الأمرِ منكم ( إن أدى هؤلاء الأمانة فى ولايتهم للمؤمنين ، وحكموا بين الناس بالعدل ، طبقاً لما فى كتاب الله . وجاء هذا الشرط فى آية سابقة على هذه الآية .. فى قول الله تعالى : « إنّ الله يأمُرُكم أن تؤدوا الأماناتِ إلى أهْلِها ، وإذا حكمتم بين الناسِ أن تحكموا بالعدل » ) ،

« فإن تنازعْتمُ فى شىء فرُدُّوه إلى اللهِ ( أى إلى كتاب الله ) والرسولِ ( أى إلى قدوة الرسول عليه السلام ) إن كنتمْ تؤْمنونَ بالله واليوم الآخِرِ ( أى إن بقيتم على إيمانكم بالله وبعدكم عن اتجاه المادية . وهو ذلك الاتجاه الذى يقوم على إنكار الإيمان بالله .. وباليوم الآخر ، تحت التأثر بإغراء متع هذه الحياة الدنيا ) ،

« ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلًا ( أى والالتجاء فى خصومة الرأى إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام : هو خير حل لمشكلتها بين المؤمنين ، لأنه رجوع إلى مصدر الإيمان نفسه . . ذلك المصدر الذى هو بعيد كل البعد عن الهوى والغرض .. والذى تجرد شأنه تماماً للمصلحة العامة ) »[1] .

---

(١) النساء ٥٩ .

**ثالث عشر:** إنها : تدعو الأمة إلى التدخل بالإصلاح أولا . . ثم بالقتال ثانيا ، إذا اشتبكت طائفة بأخرى فيها : في خصومة عنيفة أو قتال سافر . والتدخل بالإصلاح يراعى فيه العدل المطلق . . أى تراعى فيه المحافظة على الحقوق والواجبات التى لكل طائفة ، حسبما يقررها القرآن . والتدخل بالقتال يكون ضد الطائفة المعتدية منهما . . إلى أن ترجع عن اعتدائها ، فيصلح بينها وبين الأخرى التى كانت تتقاتل معها . يقول الله تعالى :

« وإنْ طائفتانِ من المؤمنينَ ( أى مجموعتان من المؤمنين) اقتَتَلوا فأصْلحوا بينهما ( أى فالطريق إلى وقف القتال بينهما هو التدخل بالاصلاح بين الطائفتين . فإن كانت مثلا : طائفة موسره تشح بالإنفاق مما تملك . . وطائفة أخرى محرومة لا تأخذ حقها من أموال الموسرين : اشتبكتا فى قتال بينهما فالحل هو الإصلاح طبقا لما جاء فى القرآن من حمل الموسرين على الانفاق ، على نحو ما قيل فى صفات المؤمنين فى قول الله تعالى .

« والذينَ فى أموالِهِمْ حقٌ معلومٌ للسائلِ والمحرومِ »(١). وحملهم يكون بالنصح : أو بالقتال . كما صنع أبو بكر رضى الله عنه فى قتال مانعى الزكاة . وعلى هذا النحو : الإصلاح ما بين صاحب العمل . . والعامل . فلو اشتبكت طائفة العمال فى خصومة أو فى قتال مع أصحاب العمل : فيجب الإصلاح بين الطائفتين بإعطاء العمال ما لهم من حقوق . . وفرض أداء ما يجب عليهم من واجبات نحو أصحاب العمل . ولو اعتدت إحدى الطائفتين على الأخرى فيجب على المسلمين أن يقاتلوا الطائفة المعتدية حتى تفىء إلى أمر الله ، ثم يصلح بين الطائفتين )

« فإن بغتْ إحداهما على الأخرى فقاتِلُوا التى تبغى ، حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءتْ فأصْلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، أن الله يُحبُّ المقسطينَ » (٢) ..

. . وهذا التدخل بالإصلاح أولاً .. ثم بالقتال إن كان هناك اعتداء ، يجىء مؤسسا على ما يذكره القرآن بعد ذلك فى قول الله تعالى :

(١) المعارج : ٢٤/٢٥ (٢) الحجرات ـ ٩

« إنما المؤمنونَ إخوةٌ ، فأصْلِحوا بينَ أخوَيْكم ، واتقوا الله لعَلَّكمُ تُرحمون »(١)

.. والأساس الذى يذكره هنا هو أساس « الأخوة » فى الترابط بين المؤمنين جميعاً . ومقتضى هذه الأخوة : أن لا يشجع الاعتداء من فريق على فريق .. وإنما يؤخذ حق المظلوم من الظالم منهما . والمسلمون جميعاً هذا الطائفتين المتنازعتين : ضد الاعتداء .. ومع إنصاف المظلوم من الظالم . وفى مقدمة المسلمين : ولاتهم وحكامهم .

والقرآن لكى يحافظ على هذه « الأخوة » : استرسلت آياته — بعد هذه الآية — فى نهى المؤمنين عن كل ما يمس هذا الأساس ، فى آية صورة . فطلبت توفير الاعتبار البشرى ، كما شرح سابقا .. وتجنب الظن فى المعاملة .. وتجنب التجسس فى معرفة الأخبار .. وتجنب الغيبة . ثم أكدت : أن المستوى فى تخير ذلك كله وفى إتقانه هو وحده معيار المفاضلة بين الأفراد : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

**رابع عشر :** إنها : تدعو إلى الحفاظ على النفس .. والمال . أى تدعو إلى المحافظة على حرمة النفس .. وحرمة المال ، تدعوا إلى الأمان : فلا تمس نفس بسؤ .. ولا يمس مال باعتداء عليه .. تدعو إلى تجنب جريمتين ، يترتب على أى منهما : فناء المجتمع .

« يا أيها الذين آمنوا :

« لا تأكُلوا أموالَكم بينكم بالباطِلِ ، إلاَّ أنْ تكونَ تجارةً عن تراضٍ منْكمْ

( والأساس فى التجارة أن يكون فيها ربح .. أى فيها أكثر من مماثلة القيمة بين الطرفين . واستثناء التجارة هنا من أكل أموال الناس بالباطل ، معناه : جواز الربح : فى تحصيله من البائع .. وفى قبوله من المشترى . أى شرعية عدم المماثلة تماما بين طرفى العقد . لأن الربح الزائد عن المماثلة هنا هو أجر على عمل فى الواقع . وهو عمل التجارة . وهذا التحليل للتجارة يعطى من جانب آخر معنى أكل أموال الناس بالباطل . وهو

---

(١) الحجرات : ١٠ .

حصول أحد الطرفين على مال من الطرف الآخر ، دون مقابل له : لهذا الطرف . فعملية النصب والتحايل .. والرشوة .. والمقامرة .. والغصب .. وما شاكل ذلك: تعد من أكل أموال الناس بالباطل . لأن مفهوم التجارة ، وأن كان العمل الشرعي جزءاً منه . . فإن حرية الطرفين في التعامل في عقده: جزء آخر فيه . وهذه الحرية غير متوفرة في النصب والتحايل ، وفي الرشوة ، والغصب . . كما أن شرعية العمل غير متوفرة في المقامرة )

« ولا تقتُلوا أنفسَكُمْ ( والمراد بها أنفس المؤمنين . والمعنى : أن تقتل نفس نفسا أخرى من بينكم . ولكنه أضاف الأنفس إلى المؤمنين جميعاً : ليشير إلى أن فقدان أية نفس بالقتل من بين المؤمنين هو في حقيقته يخص المؤمنين جميعا ، وليس فقط تلك النفس التي وقع عليها القتل ) إن الله كانَ بِكُمْ رَحِيما ( أي حين يطلب إليكم تجنب القتل ، بعد أن طلب منكم عدم أكل أموال الناس بالباطل . لأن كلا من الجريمتين يهدد المجتمع بالفناء . إحداهما بفناء النفوس . . والأخرى بفناء من يمسه إلغاء الوظيفة الاجتماعية للمال . وهي تعلق حق المحرومين فيه ) [1] ..

**خامس عشر** : ترى دعوة القرآن : أن المادية هي عدو الحضارة الإنسانية ، لأنها تجر الإنسان إلى : الحيوانية . . والعبث . . والفساد في الحياة البشرية : هي عدو أبدي ودائم للإيمان بالقيم العليا :« ولا يزالُ الذينَ كفَرُوا في مِرْيَةٍ مِنْهُ ( أي من القرآن ككتاب يسجل الدعوة إلى الإيمان بالقيم العليا ) ، حتى تَأْتِيَهُمْ الساعةُ بغتةً ، أو يأْتِيَهُم عذابُ يومٍ عقيمٌ » [2] ..

.. والماديون لا يخلصون أبداً لمن يؤمن بالقيم العليا .. وبالتحول إلى المستوى الحضاري البشري للإنسان .. ولمن يدعو إليه ، ومن هنا يجب أن لا يصادقوا :

« يا أيها الذين آمنوا :

« لا تتخذوا عدوي وعدوكُمْ : أولياء ، تُلقُونَ إليهم بالمودَّة [3] إذ في مصادقتهم

---

(١) النساء ٢٩ . (٢) الحج ٥٥ . (٣) الممتحنة ١ .

والتورد إليهم ما يحول دون الاحتياط منهم . فنفوسهم تنطوى على السوء ، كما تنطوى على الأمل فى إبعاد المؤمنين عن إيمانهم : « إنْ يَثْقَفُوكُمْ ( أى يظفروا بكم ) يكونوا لكم أعداءً ، ويبسُطوا إليكمْ أيديَهُمْ وألسِنَتَهم بالسوء ، ووَدوا : لو تكفرونَ » (١).

.. ومهما كان يرجى من نفع مادى منهم .. فما يحصله المؤمنون من نفع يعود على تماسكهم وترابطهم عند عدم مصادقتهم : أفضل وأعم مما يتصور لدى أولئكم الماديين : « وإن خِفْتمْ عَيْلَةً ( أى فقرا وحاجة بسبب مقاطعتكم لهم ) فسوفَ يُغنيكم اللهُ من فضله ، إن شاء ، إن الله عليمٌ حكيمٌ » (٢) .

.. وإذا كان من الحيطة : عدم مصادقة الماديين .. وعدم الدخول معهم فى معاملات اقتصادية .. فالإسلام على اطلاق : مخاصمتهم .. ومقاتلتهم : قَاتِلوا الذينَ لا يؤمنون بالله ، ولا باليومِ الآخِرِ ، ولا يُحرِمونَ ما حرّم اللهُ ورسولُهُ » (٣) .

.. والقرآن — وهو رسالة السلام — إذا كان يطلب من المؤمنين : أن يقاتلوا فى سبيل الاحتفاظ بإيمانهم وبعزتهم : أعداءهم الحقيقيين ، وهم الماديون ، فضلا عن عدم التقرب إليهم وعدم مصادقتهم وعدم انتظار النفع المادى منهم .. إذا كان يطلب القتال معهم : فإنه يطلبه كضرورة تفرضها الحياة للمؤمنين أنفسهم . فطالما الماديون هم الأعداء الحقيقيون للحضارة الإنسانية التى تمثلها قيم الإيمان بالله ، وهم باقون على قوة لهم .. فالخطر سيلحق المؤمنين : إن اليوم .. أو غدا ، من عداوة هؤلاء .

وهذا على نحو ما كان على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام فى الغزوات التى دار فيها القتال . والهدف من القتال يومئذ كان للوقاية ، ولم يكن للتوسع .. كان لحماية المؤمنين : قيم مجتمعهم من أعداء السوء له . وهم المشركون ، أو الماديون الوثنيون فى شبه الجزيرة .

وآية القتال للماديين السابقة نزلت ، بعد أن كانت للمسلمين قوة : نوعية .. وعددية ،

---

(١) الممتحنة ٢ (٢) التوبة ٢٨ (٣) التوبة ٢٩

يستطيعون أن يواجهوهم بها . فهى من آيات سور التوبة ، وقد نزلت بعد المائدة . وهذه الأخيرة نزلت فى حجة الوداع بعد فتح مكة . وكان المؤمنون إذا ذاك يمثلون قوة إيمانية .. وعددية مرموقة ، ويخشى منها .

فإذا لم يكن المؤمنون على قوة كافية لمواجهة الماديين بالقتال فى وقت من الأوقات : فالأمر يقف بالمؤمنين عند حد عدم الولاء للماديين . ولهم أن لا يجاهروا بعدم الولاء لهم، تقية منهم ، كما جاء فى سورة ، آل عمران .

لاَ يَتَّخِذِ المؤمنونَ الكافرينَ : أولياء من دون المؤمنينَ [،

ومنْ يفعلْ ذلِكَ فليسَ منَ اللهِ فى شىءٍ الاَّ أَن تَتَّقُوا منهُمْ تقاةً .

ويحذرُكُمُ اللهُ نفسَهُ ) وإعلان تحذير الله للمؤمنين هنا : دليل على خطورة موالاة المؤمنين لأعدائهم ، وبالأخص الماديين منهم : على مجتمعهم .. وأمتهم .. وقيمهم ) وإلى اللهِ المصيرُ (١)..

.. والقتال — وهو سبيل من سبل الوقاية — وإن كان مكروها للنفوس ، إلا أنه ينطوى فى حقيقته على خير للبشرية . وهو صيانة الحضارة الإنسانية من الدمار والتخريب الذى تسعى إليه المادية بكل ما تملك من قوة : كُتِبَ عليكم القتالُ ، وهو كُرْهٌ لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً ، وهو خيرٌ لكُمْ ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم (كالتخلف عن القتال فى سبيل القيم العليا ، فإنه شر لا يصيب المتخلفين وحدهم ، وإنما البشرية كلها : «واتقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكمْ خاصة (٢) ( وهى فتنة التخلف عن القتال . والذين ظلموا هم المتخلفون الذين رضوا أن يكونوا مع القواعد من النساء ) » « واللهُ يعلمُ وأنتمْ لاتعلمونَ » (٣)..

* * *

---

(١) آل عمران ٢٨ (٢) البقرة ٢١٦

(٣) الأنفال ٢٥

وهذه النماذج من المبادىء في القرآن الكريم تصور : « التجرد » التام في قيمتها .. وفي تحليلها . لأنها ترجع جميعها إلى الاحتفاظ بقيمة الإنسان كفرد .. وإلى احترام حرمته :

١ — فالإيمان مثلا برسالة الحضارة البشرية السابقة ، هو استمرار للاعتراف بالقيم العليا التي جاءت بها الرسالة السابقة ، من أجل تقدير الإنسان وصيانة حرمته . وليس انتكاسا .. ولا هدما وتخريبا لأي جانب من جوانب هذه الحضارة .

٢ — والترابط بين الأفراد على أساس القيم العليا وحدها في حياة الإنسان ،

٣ — وكذا إيثار استمرار الترابط على هذا الأساس ،

٤ — وتوفير الاعتبار البشري لكل فرد ،

٥ — والتفاضل بين الأفراد على أساس التمايز في مستوى البشري ،

٦ — وإبراز المسئولية الفردية — دون المسئولية الاجتماعية ،

٧ — واستهداف الخير وحده من أي اجتماع غير علني .. كل هذه المبادىء تتصل مباشرة بكرامة الفرد ، والحرص عليها .

وليس أقل من هذه المبادىء وضوحا وتجردا : لاحترام الفرد وحرمته ، ما جاء في هذه النماذج ، من أن :

٨ — رغبة السلام .. تصحب الاعداد لرد الإعتداء في الأمة ،

٩ — وتكافؤ السعي والعمل من أجل الرزق .. مع عبادة الله ،

١٠ — والعدل .. والشورى ، من أسس نظام الحكم الإنساني ،

١١ — واعتبار الاحتراف بالقيم العليا ، رجوعا بالحضارة .. إلى الجاهلية ،

١٢ — وتحكيم المصدر الأصيل للمبادىء العامة ، عند التخاصم في الرأي بين الأفراد ،

١٣ — وتدخل الأمة بالإصلاح، عند مواجهة مجموعة فيها بأخرى ،

١٤ — وصيانة النفوس والأموال من الضياع . بغير سبيل مشروع ،

١٥ — واعتبار العدو الأول للحضارة الإنسانية هو المادية وتوجيهها .

* * *

إن جانب تجرد المبادىء القرآنية من الهوى .. والحزبية .. والعصبية .. ومن أى عامل شخصى آخر : هو جانب رئيسى فى إعجاز القرآن .. وبالتالى : هو آية على صلاحيته للإنسان ولتوجيهه صلاحية تامة ، بغض النظر عن مرور الزمن . . أو اختلاف الشعوب والأمم .وكذلك آية على صلاحيته لتأسيس الحضارة الإنسانية عليه ، تلك الحضارة التى تستهدف الإنسان : فى كرامته .. وفى حرمته فى مسكنه .. وفى حرمته فى ماله الخاص . . وفى حرمته فى نفسه ، وأمنه من الاعتداء أو الإرهاب .. وفى حريته فى سعيه وفى عمله.. وفى حقه فى العدل .. وفى إبداء الرأى .

والعمل الإنسانى الذى هـــو : وليد هذه الحرية . . وآت عن طريق استعمال الحق الإنسانى : هو الصور الواضحة للحضارة الإنسانية .

فالقرآن معجز .. وفى الوقت نفسه مصدر للحضارة البشرية .

الفصل الثانى

# بين طبيعة الإنسان وهداية القرآن

**ما تتجه اليه طبيعة الانسان :**

● إن طبيعة الإنسان — وهى طبيعة ثنائية فى وحدة واحدة — تتجه بحكم جانب من ثنائيتها ، وهو مصدر الحركة فى الإنسان : إلى اتجاهات ثلاثة ، أو تميل بالحركة فى الإنسان صوب أهداف ثلاثة فى عالمه الذى يعيش فيه . ومصدر الحركة فى الإنسان هو المصدر المؤقت فى الفرد ، ويتمثل فى معدته وما يتصل بها من غرائز .. والمصدر المستمر فيه ، ويتمثل فى نسله والخلف البشرى الذى ينتج عنه ، وما يرتبط به كذلك من دوافع تدفع إلى حركته .

وما يعبر عنه فى طبيعة الإنسان بغريزة حب البقاء الفردى أو النوعى .. أو بالشهوة ، أو ما يتحدث عنه فى بدنه من المعدة والفرج ، أو ما يذكر فيه باسم الطبيعة الحيوانية : كل ذلك يمثل جانبا فى الطبيعة الإنسانية .

أما الجانب الآخر فيمثله القلب والعقل .

والقرآن الكريم يذكر هذه الثنائية فى قول الله تعالى :

« هلْ أتىَ على الإنسانِ حينٌ من الدهرِ لم يكنْ شيئاً مذكوراً (أى خلقه كان إبداعا )

« إنّا خلقنا الإنسانَ من نطفةٍ أمشاجٍ ( أى خلقه الله — بعد آدم ، وحواء — من نطفة مشتركة ، اختلط فيها ما للذكر وما للأنثى . وهذا هو الجانب الحيوانى ، أوالجانب

المادى الذى يوحى بالشهوة لديه .. أو هو الجانب الذى يتجذب إلى المادة أو يرغب فى الخلود إلى أدنى ).

نَبْتَلِيهِ ( أى جعل تكوين أحد جانبيه من هذه النطفة ، وهى مادة : ليختبر بهذا الجانب فى حياته الإنسانية ) ،

فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ( أى ومن أجل تحقيق الإختيار جعلناه مدركا ، وذا عقل كذلك .

وهذا هو الجانب الثانى فى تركيبه وفى ثنائيته . والإنسان عندئذ فى طبيعته إذن : مادة ، ومن شأنها أن تميل بالإنسان إلى الرسوب نحو الأدنى .. وعقل ، ومن شأنه أن يسمو بالإنسان فوق الدنو والسقوط والانحدار )

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ( وهو سبيل الإيمان برسالة الله على يد أى رسول ، وكذلك سبيل العمل بها ) : إِمَّا شَاكِرًا ، وَإِمَّا كَفُورًا ( أى ولكن ليس بلازم أن يهتدى بها بالفعل : فإما أن يؤمن الإنسان معبرا عن شكره لله عن هدايته .. وإما أن يظل غير مؤمن بهذه الهداية ومعارضا إياها ، ويستمر حينئذ على ترديده بين خصائص المادة فيه ، وهى التى تدفع نحو السقوط . . وخصائص العقل والحكمة لديه ، وهى التى تحمل على الرفع والسمو )(١)..

•• والإختيار الذى وضع أمامه الإنسان فى حياته ، وعبر عنه القرآن بقوله: نَبْتَلِيهِ هو اختيار هذا التردد والتذبذب : بين السقوط والرفعة ، أو بين الهوى والسمو . والعامل المرجح لسموه ورفعته ، وخروجه من هذا التردد بحكم ازدواج طبيعته : هو عامل الايمان . فإذا لم يتبع هداية الله : هوى نحو معدته وفرجه .. وأغفل عقله وقلبه .

● والإتجاهات أو الأهداف الثلاثة التى يميل إليها الإنسان من طبعه ، ويندفع نحوها

---

(١) الإنسان : ١ — ٣ .

إذا لم يأخذ بهداية الله ، هي : اتباع الهوى .. والميل إلى الشح .. والركون إلى المحسوس أو المشاهد وحده . وثلاثتها تكون ظواهر اتجاه الجانب المادى فى الإنسان ، أو تحدد مظاهر الأنانية فيه .

**اتباع الهوى :**

● وجعل القرآن الكريم اتباع الهوى فى الإنسان — اهتماما بهذه الظاهرة — : أمارة على انفكاكه عن هداية الله ، وتخلفه عن الإيمان به ، فيما يذكره قول الله تعالى : فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ( أى فان لم يستجيبو لتحديك إياهم بإتيان كتاب من عند الله هو أهدى من التوراة والقرآن ) فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ( أى فيما يحاجونك فيه . إذ ليست هناك مرحلة وسطى فى سلوك الإنسان وموقفه : فإما اتباع للهوى ، كإحدى ظواهر الجانب المادى فى الإنسان .. أو طاعة لهداية الله ، ورفعة وسمو فى إنسانيته ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ؟ [1]) ..

.. والقرآن يضع هذه الظاهرة المادية لأهميتها أمام الرسول عليه السلام : ليعلمه بها : من هم الكافرون حقا .. ومن هم أعداء الله فى مواجهة دعوته ، كى يأخذ حذره منهم من جانب .. وليخفف من أمله فى كسبهم لدعوته من جانب آخر . إذ قبل هذه الآية يحكى القرآن عن عدم جديتهم ، واستخفافهم بشأن الدعوة ، فيما يقصه من منطق حالهم ، أو مقالهم ، بقوله .

« ولولا أنْ تُصيبَهُم مصيبةٌ بما قدمتْ أيديهمْ فيقولوا : رَبنا لولاَ أرْسلتَ إلينَا رسُولا ، فنتبعَ آياتكَ ، ونكونَ منَ المؤمنينَ .

فلمَّا جاءهُم الحقُّ منْ عندنَا ( وهو القرآن ) قالوا : لولا أُوتىَ مثلَ ما أُوتىَ موسىَ ؟ .

(١) القصص : ٥٠ .

أوَ لم يكفروا بما أوتىَ موسى من قبل ؟ قالوا : سِحْرانِ تَظاهَرا ، وقالوا : إنّا بكلٍ كافرون ؟ .

قُلْ فأْتُو بكتابٍ منْ عندِ الله هُوَ أهدَى مِنْهما أتّبِعْهُ ، إن كُنتمْ صادقِينَ[1]..

.. فمنطقهم هو منطق التهرب من الإيمان ، تحت تأثير جنوحهم إلى الهوى، والانحدار إلى ضلاله ومتاهاته :

**أولا** : عندما يتعرضون للإحداث والمصائب الناشئة عن تصرفاتهم هم : يعلنون استعدادهم للإيمان برسالة الرسول إذا أرسل بها واحد إليهم ، كى يكون ذلك شفاعة عند الله ، فتزول عنهم هذه المصائب .

**ثانيا** : عندما تأتيهم رسالة الرسول — على نحو ما جاء محمد عليه السلام : بالقرآن إليهم – يتهربون من الإيمان بها ، بدعوى أنها ليست على نمط رسالة سبقته ، كرسالة موسى عليه السلام فى كونها غير منجمة ، وغير مصحوبة بأمارة مادية ، كعصا موسى ، مع أن موقفهم من رسالة الرسول السابق ، كان على شاكلة موقفهم من الرسول الذى أتى إليهم ، وهو موقف رفض الرسالة وعدم الإيمان بها ، مدعين : أن كلتا الرسالتين ينطويان على خداع ، أوهما قائمان على خداع : « قَالُوا : سِحْران تظاهَرا ، وقالوا : إنَّا بكلٍ كافرون » .

**ثالثا** عندما يتحدّون بطلب الإتيان بكتاب هداية ، بعيداً عن الخداع يتبعونه جميعا — وفى مقدمتهم الرسول — يعجزون عن الإتيان به . وهم إذن ليسوا جادين فى فى الانتقال من اتباع الهوى الى الإيمان بهداية الله . بل ما زالوا يتبعون أهواءهم . ولذا: كان منطقهم فى عدم الإيمان : هو منطق الضالّ فى غير اهتداء لسبيل الحكمة .

وشأن المتبع لهواه : أن لا يرضى بحال إطلاقا . بل هو قلق فى حالتى الغنى والفقر .. والصحة والمرض .. والترف والحرمان . وقلقه يعود إلى طلب المزيد ، إن كان لديه ما يرغب فيه ، أو إلى الإلحاح فى تحقيق رغبة له إذا لم تكن قد تحققت . ، ويضرب القرآن المثل

---

(١) القصص : ٤٧ – ٤٩

المتبع لهواه : بالكلب الذى يلهث خوفاً ، كلازمة له ، من لوازم طبعه الكلابى ، سواء فى حال ما إذا اضطهد .. أوفى حال عدم اضطهاده . فيقول تعالى :

« وَاتْلُ عليهمْ نبأَ الَّذى آتيناهُ آياتِنا ( وآيات الله هى كتاب هدايته على يد رسول من رسله ( فانسلخَ منها فأتبعَهُ الشيطانُ فكانَ من الغاوينَ ( وليس من يؤتى كتاب الله ثم ينسلخ منه : شخصا معينا . وإنما هو كل من اتبع هواه ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ) .

« وَلَوْ شِئْنالرفعناهُ بِهَا ( وكان فى مقدور المشيئة الإلهية أن تساعد كل من بلغته رسالة الله على أن يسموا بها ، إن كانت لديه أهلية وصلاحية لقبول الرسالةوالإيمان بها ) ،

« ولكنَّهُ أخْلَدَ إلى الأرْض واتَّبَعَ هَوَاهُ ( أى ولكن من انسلخ عن رسالة الله واتبع هواه فغوى : ليست لديه صلاحية لقبولها . إذ أنه أطمأن حينئذ إلى الدنو، وركن إلى خصائص المادة فيه ، وهو السقوط إلى مجالَىْ المعدة والفرج . أى إلى مصدرَى الشهوة فيه . ومن ثَمَّ : يتبع هواه ويطغى فيه ، دون أن يتبع هداية الله . ويصعب عليه آنئذ أن يتحول من حال التبعية لهواه .. إلى حال السيادة والتحكم فيه ) .

« فَمَثَلُهُ كَمثل الكلبِ إنْ تحمل عليه يلهَثْ ، أوْ تتركْهُ يلهَثْ ،

« ذلكَ مثلُ القومِ الذينَ كذَّبُوا بآياتنَا ، فاقْصُص القصَصَ لعَلَّهُمْ يَتَفكَّرُونَ .. ساءَ مثلا : القومُ الذينَ كذبوا بآياتنَا وأنفُسَهُمْ كانوا يَظْلِمُونَ[1] ..

● .. وإذا كان اتباع هوى النفس أمارة مميزة على عدم الإيمان بهداية الله ، وخاصة من خواص الجانب المادى فى الإنسان .. فإن الانتقال منه إلى إتباع هداية الله هو انتقال من النقيض إلى النقيض ، يتوقف نجاحه على إرادة قوية وجهاد للنفس

(١) الأعراف : ١٧٥ — ١٧٧ .

وهواها . ومن تتوافر لديه هذه الإرادة فإنه سيجد العون من الله فى تحوله من الجانب المادى فى طبيعته إلى الجانب الآخر فيه ، وهو جانب السمو إلى مستوى العقل والحكمة والقلب .

وتعبير القرآن هنا : بالخلود إلى الأرض واتباع الهوى : تعبير قصد منه نفى العزم والإرادة عند من ينسلخ من آيات الله ورسالته ، فلا يؤمن بها . ولذا لا يصلح أن يكون موضعا لعون الله على اجتيازه ذلك الممر الذى يُمثلُ خط النُّقْلة من الكفر . . إلى الإيمان . ومشيئة الله إذن فى شأن الهداية : مرتبطة بمشيئة الإنسان نفسه نحو الإيمان . على معنى : أن من يفتح قلبه للإيمان بالله : يجد طريقه إليه ميسرا ، بإرادة المولى جل جلاله :

« وَمَنْ يؤمنْ باللهِ يهْدِ قلبَهُ ( أى من يتجه إلى الإيمان بالله : يهد الله قلبه إليه ، ويشرحه له ، وييسر عليه شأنه ) »(١)

**الميل الى الشح :**

● والظاهرة الثانية من ظواهر الجانب المادى فى الإنسان : ميله إلى الشح :

« قُلْ لو أنتمُ تملكونَ خزائنَ رحمةِ ربى إذا لأمسكتمْ خشيةَ الإنفاقِ ، وكان الإنسانُ قَتُوراً »(٢). إذ الشح طبع فى النفوس الباقية على أنانيتها : يحمل على المنع ، والقبض على ما للإنسان — أيا كان ما يملكه — ، بحيث لا يصيب غيره ، وإن كان هذا الغير ذا حاجة إليه . وليس الشح عادة تتكون فى الإنسان .. وبذلك يختلف عن البخل الذى هو الإمساك عن إنفاق المال : على النفس ، أو على الآخرين : فقد لا يكون البخيل شحيحا بطبعه . وإنما بخله جاء كعادة تكونت فيه لظروف معينة .

---

(١) التغابن : ١١ .

(٢) الاسراء : ١٠٠ .

وآثار الشح على سلوك الإنسان وموقفه فى الحياة : هى آثار سلبية لا تبلغه إلى هدف إنسانى فى حياته . وينظر القرآن إلى الأموال والأولاد — وهى ما يعتز بهـا الإنسان ، ويحرص عليها شأنا ـ على أنها اختبار ، وفتنة ، كأى أمر أو متعة مادية فى حياة الإنسان . وعن طريق الإختبار فيها تتضح مادية الإنسان ، إذا كان شحيح النفس حيالها . وفى الوقت ذاته : يوصل شح النفس فيها الى سلبيات ، تعكس قبوله للذلة فى سبيل الشح كطبع فيه . وفى مقدمة هذه السلبيات : عدم النجاح فى قيادة نفسه ، أو فى صلاته بغيره . فيقول الله تعالى :

إنّما أموالُكُمْ وأوْلادُكُمْ فتنةٌ ، واللهُ عندهُ أجرٌ عظيمٌ ،

فاتّقوا اللهَ ما استطعْتمْ ( أى اسلكون خط الهداية الإلهية ، متجنبين موقف الماديين فى بقائهم فى حيز الأنانية ) واسْمعُوا ( أى ليكن لديكم وعى لما يوحى به الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ) وَأطيعُوا ( أى ونفذوا ما تسمعون : عملا ، وقولا ) وأنفقوا ( أى وعلى وجه الخصوص : تطيعون ما يوجبه الله عليكم فى أموالكم ) خيراً لأنفسِكُمْ ( أى وما تباشرونه من : وعى لما يوحى . . وطاعة له . . وإنفاق من أموالكم : هو لمصلحتكم أولا ، وليس لمصلحة صاحب الهداية والرسالة ، لأنه غنى عن العالمين ) ،

ومن يوقَ شُحَّ نفسِهِ فأولئكَ هُمُ المفلحونَ ( والذى ينفق من فضل الله عليه ، حسب ما أوجب الله : يقيم وقاية له فى محيط حياته . تقيه مرض شح النفوس ، كطبع لا يغيره إلا الإيمان بالله ، والطاعة لأوامره ونواهيه . ومن جعل بينه وبين هذا المرض الإنسانى وقاية تقيه منه : فإنه يكون قد أعد نفسه بعُدةِ النجاح والفلاح :

مع أهواء نفسه وشهواتها .. ومع أحقاد الآخرين وسموم حاجاتهم ) (١) ..

.. وفى وصف القرآن لموقف الأنصار فى المدينة من توزيع أموال الفيء التى أصابها المؤمنون — بعد عودتهم من غزوة الخندق ، أو غزوة الأحزاب — من يهود بنى النضير

(١) التغابن : ١٥/١٦ .

وقريظة بعد حصار دام عدة ليال : يعقب بقول الله تعالى : وَمَنْ يوقَ شحَّ نفسِهِ فأولئكَ هُمُ المفلحونَ .. إشارة إلى أن الأنصار قد نجحوا فى موقفهم ، بعد أن سادوا على الجانب المادى فى طبائعهم بإيمانهم . ذلك الجانب الذى يعد الشح ظاهرة من ظواهره الرئيسية .

فما أن وصل رسول الله إلى المدينة عائداً من القتال فى غزوة الخندق : حتى جاءه جبريل عليه السلام يحمل إليه أمر الله بالخروج إلى بنى النضير وقريظة . إذ قد انتهز هؤلاء اليهود فرصة غزوة الخندق ونقضوا العهد واتفقوا مع قريش وغطفان على حرب النبى صلى الله عليه وسلم . ففاجأهم عليه السلام بحصار ديارهم ، حتى نزلوا على حكمه وخرجوا عن ديارهم وأموالهم للمؤمنين . وفى هذا يقول الله تعالى فى سورة الحشر :

هُوَ الذى أخرجَ الذينَ كفروا منْ أهلِ الكتابِ من ديارِهِمْ لأولِ الحشرِ ( أى بالجلاء ) ،

« ما ظَنَنْتُم أن يَخْرُجُوا ،

« وظَنُّوا أنهم مانعتُهُمْ حصونهُمْ من اللهِ ،

« فأتاهُمُ اللهُ من حيث لم يحتسِبُوا ، (وذلك بمفاجأة المؤمنين لهم بالحصار) وقذفَ فى قلوبِهمُ الرعبَ ( عن طريق إحكام الحصار حول ديارهم )

« يُخْرِبونَ بيوتَهُمْ بأيديهمْ ، وأيدِى المؤمنينَ ( وكانت نتيجة المفاجأة بحصار ديارهم : أن باشروا هم أنفسهم هدمها ، يأساً من البقاء فيما استوطنوه حتى الآن ) فاعْتَبِرُوا يا أُولِى الأبْصَارِ .

« ولولا أنْ كتبَ اللهُ عليهِمُ الجلاءَ لعذَّبَهُمْ فى الدنيا ، ولهم فى الآخرةِ عذابُ النارِ » (١) ..

.. وهكذا انتهت أموال اليهود إلى المؤمنين بدون قتال معهم . وتأخذ هذه الأموال عندئذ : إسم الفىء بمعنى العائد . على نحو ما يقول القرآن : وَمَا أفاءَ اللهُ على رسولِه منهُمْ فما أوجفْتُمْ عليهِ من خيلٍ ولا ركابٍ ( أى فما تحملتم فى سبيله مشقة السفر على الخيل

(١) الحشر ٢/٣

أوعلى ما يركب من الأبل .ولـكن وصلتم بأقدامكم إلى ديار هؤلاء الأعداء ) ولـكنَّ اللهَ يسلطُ رسلَهُ على من يشَاءُ ( أى ولـكن حصول المؤمنين على أموال أعدائهم هنـا بغير قتال كان نتيجة لمبدأ عام تتمثل فيه إرادة الله . وهو مبدأ تـكليف الرسل بتنفيذ نوع معين من التدابير . على نحو ما كلف الرسول عليـه السلام بحصار بنى النضير وقريظة ) (١) .

.. وعند توزيع مال الفيء قسم الرسول عليه السلام أموال بنى النضير على المهاجرين. ولم يعط من الأنصار ، إلا ثلاثة نفر محتاجين . وقال عليه السلام للأنصار :

إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالـكم ودياركم، وشاركتموهم فى هذه الأموال وإن شئتم كانت لـكم دياركم وأموالـكم ، ولم يقسم لـكم شىء منها . فقالت الأنصار . بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ، ونؤثرهم بهذه الأموال ولا نشاركهم فيها . فنزل قول الله تعالى :

وَالذينَ تبَوَّأوا الدارَ والإيمانَ منْ قَبْـلهم ( ويقصد الأنصار . لأنهم سبقوا المهاجرين إلى سكنى دار الهجرة ، وهى يثرب ، وآمنوا بالرسول عليه السلام فى لقاء — من لقاءات الحج — به عليه السلام قبل هجرة المهاجرين إليها ، بعد أن كانوا أصحاب وثنية مادية تلتصق بطباعها : الأنانية ، والشح ،

يُحبُّونَ من هاجـرَ إليهم ، ولا يجدونَ فى صدورهِمْ حاجة مما أوتُوا ( أى مما أعطى لهم من أموال الفيء التى أخذت من يهود بنى النضير وقريظة حول المدينة فنفوس أولئـكم الأنصار لم تطمح إلى شىء مما سلم للمهاجرين من هذه الأموال ) ،

وَيُـؤثرونَ على أنفسِهمْ ولوْ كان بهمْ خَـصَـاصة ( أى ومع كون الأنصار لم يتأثروا بما أعطى للمهاجرين دونهم .. فإنهم كانوا كذلك يؤثرون بما لديهم من مال رغم حاجتهم هم إليها فى تفريج شدائدهم ) ،

---

(١) الحشر ٦

وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (فهؤلاء الأنصار بموقفهم من المهاجرين : فى عدم الحقد عليهم عندما أعطوا من الفيء دونهم .. وفى إيثارهم اياهم بأموالهم مع حاجتهم هم إليها: يضربون المثل فى وقاية النفس من شحها كطبع فيها .ولذلك هم ناجحون. لأنهم استطاعوا التغلب على شهواتهم ، كما استطاعوا أن ينقذوا إخوانهم من العوز والحاجة ) [1] ..

.. فوضع الأنصار هنا إذ ينم عن تخلصهم من الشح ، كطبع فى النفوس ، بفضل قوة إيمانهم .. فإنه ينم من جانب آخر كذلك عن : أن هذا الشح يكون شيمة وطبعا للإنسان ، إذا لم ينتقل من أنانية ذاته بفعل الإيمان وقوة تأثيره فى الانتقال .. إلى معنى : المشاركة الإنسانية بين الأفراد جميعا .

**الركون الى المحسوس :**

● والظاهر الثالثة من ظواهر الجانب المادى فى تكوين الإنسان : ظاهرة الركون إلى المحسوس والمشاهد . فالناس بحكم طبيعتهم قبل الهداية يؤثرون المنافع والمتع الدنيوية على كل قيم ومثل إنسانية .. يؤثرون الموجود المشاهد من المصالح المادية القائمة على تلك الأخرى التى يوعدون بها فى الدار الآخرة . ولا يطمئنون إلا لما بين أيديهم ، ولا يسعون إلا للحصول عليه ، مهما كانت الطريق ملتوية ، ومهما ترتب على اقتناص المصلحة الشخصية من أضرار ونتائج سيئة للآخرين، سواء أكانت هذه الأضرار مادية أو معنوية .

ولا يسمعون ولا يعون ما ينبهون إليه من العواقب الوخيمة : على الذات وعلى المجتمع ، بسبب الوقوف عند حد الحس من المتع والمنافع وحدها .. ولا يسمعون ولا يعون ما يذكرون به من أحداث الماضى وقوانين الحياة البشرية ، بسبب ارتكاب السبل التى تعبث بالقيم الإنسانية فى طريق الوصول إلى تحقيق المتعة المادية وحدها .

ومن أجل ذلك ينكرون الحياة الآخرة ، مثل ما جاء فى قوله تعالى :

---

(١) الحشر ١٠/١١

« وَوَيلٌ للكافرينَ من عذابٍ شديدٍ. الذين يستَحِبونَ الحياةَ الدنياَ ( وهى الحياة المشاهدة والمحسة ( عَلىَ الآخِرةِ ( وهى الحياة المغيبة الموعود بها ) »

« ويصدّونَ عن سبيل اللهِ ، ويبغونها عوجًا ( ومن أجل أنهم يقفون بنظرتهم إلى الحياة .. وبسلوكهم فيها .. وبموقفهم من مشاكلها وأحداثها : على المحسوس وحده : يصدون أنفسهم وغيرهم عن طريق الهداية ، وهو سبيل الله ، كما لا يريدون لهذه الطريق أن تبقى على استقامتها ) أولئك فى ضلال بعيد » (١) .. فهم ينكرون الحياة الآخرة ومتعها — وقد تكون متعا مادية كذلك تمثل نعيم الله فيها — كما ينكرون الاستقامة فى التوجيه .. وفى الفعل .. والتفكير .

وما فى الدنيا من مفاتن ومغريات : له وحده التأثير عليهم :

زُيِّنَ للناس (أى كطبعٍ من طبائعهم ) حبُّ الشهواتِ من النساءِ والبنينَ ،والقناطيرِ المقنطرةِ من الذهَبِ ، والفضَّة ، والخيلِ المسومةِ ، والأنعام ، والحرثِ ،

« ذلك متاعُ الحياةِ الدنيا ،

« والله عندَهُ حسنُ المـآب » (٢) .

وهؤلاء الذين يركنون إلى المحسوس وحده ويقعون تحت إغرائه ومفاتنة .. يسخرون عادة من أولئكم الذين يؤمنون بالقيم الإنسانية فى حياتهم ، ويرون : أن ما فى الدنيا إنْ هو إلا متاع مؤقت :

«زُيِّنَ للذين كفروا : الحياة الدنيا ( أى تغري الحياة الدنيا بمظاهرها الخلابة ومتعها المحسوسة : أولئك الذين يؤثرون البقاء على طبيعتهم المادية ) ،

ويسخرون من الذين امنوا ( أى الذين يؤمنون بالله .. وبالغيب .. وبالدار الآخرة ونعيمها أو عذابها ) ،

---

(١) إبراهيم ٢/٣
(٢) آل عمران ١٤

وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (وإن كان المؤمنون فى واقع الأمر أسمى منهم منزلة فى الجزاء عند الله لهم يوم القيامة)،

وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (أى وأما الرزق فى الدنيا لأى إنسان، فليس له دلالة على سمو الإنسان وتفوقه، على من هو قليل الرزق. ولذا قد يكون الكافر صاحب رزق واسع فى دنياه، بينما المؤمن لا يصيب لقمة العيش إلا بمشقة: «وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (أى فى الكفر) لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ. وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ. وَزُخْرُفًا، وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ»[1].. وإذن: المال، والمتع المادية، ونعيم الحياة ليست طريق التقييم للإنسان. وإنما طريقه: المستوى الإنسانى الذى يبلغه. وكلما اقترب مستوى الإنسان فى صفاته مما لله فى كمالاته.. كلما كان رفيع الدرجة والمنزلة فى الإنسانية. والرزق فى كثرته أو فى ضيقه ليس عامل تقدير على الإطلاق. إنما هو عامل تقدير فى نظر المادى الذى يؤمن بالمحسوس والمشاهد وحده).

وإيمانهم بالمحسوس وحده يدفعهم إلى أن يقصروا الحياة البشرية على الحياة الدنيا وحدها: «إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا: نَمُوتُ وَنَحْيَا (أى والحياة الدنيوية هى حياة مستمرة للبشر. والتغيير فيها هو تغيير أجيال وأفراد. والنوع الانسانى إذن ينتقل من أفراد كانوا أحياء بالأمس إلى أفراد آخرين خلقوا أحياء اليوم.. وهكذا: بدون انقطاع) وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (ولذا ليس هناك بعث.. أى ليست هناك حياة أخرى مغايرة للحياة التى عاشها الانسان ويعيشها فى دنياه.. هى حياة واحدة، والسعيد برزقه سعيد حقاً، والشقى بحرمانه من تلك المتع المحسوسة شقى حقاً. ولا تعويض لمحروم، ولا عقاب لمترف فاسد على فساده بسبب ترفه)[2].

* * *

(١) الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥. (٢) المؤمنون: ٣٧

والجانب المادى فى الإنسان هو إذن جانب الميل فيه إلى :

- اتباع الهوى والشهوة ، والوقوف بالسعى عند متطلبات : المعدة ... والفرج ،
- وإلى الإمساك والشح ، عن الذات وعن الآخرين ،
- وإلى الركون إلى المحسوس والمشاهد ، فى المتعة .. والمنطق . . والتصرف .

وإشارة القرآن فى خَلْق الإنسان إلى : أنه من طين . . ثم من ماء مهين ، هو إشارة إلى هذا الجانب المادى فيه ، الذى تعرف معالمه بهذه الميول الثلاثة فيه .

كما أن إشارته فى خَلْق الإنسان إلى : أنه صاحب سمع وبصر ( فجعلناهُ سميعاً بَصيراً ) .. أو إلى أنه صور بعد أن خلق ( ولقَدْ خلقنَا كُمْ ثم صَورنا كُمْ ..) أو إلى أنه ذو لباس يوارى سوأته ، وذو ريش يتزين به ( قَدْ أنزلنَا عليكُمْ لباساً يوارى سَوْءاتِكم وريشاً ) ، هو إشارة كذلك إلى جانب العقل والحكمة فيه .

وقد جمع القرآن الأمرين معاً فى سورة السجدة ، فى قول الله تعالى :

« الَّذى أَحْسَنَ كلَّ شىء خَلَقَهُ ،

« وَبَدأَ خَلْقَ الإنسان من طين ، ثمَّ جعلَ نَسْلَهُ من سُلالةٍ من ماءٍ مهينٍ ( والطين . . والماء المهين كلاهما يمثل التطور فى الجانب المادى لخلق الإنسان ) .

« ثم سَوَّاهُ ونفخَ فيه من روحِهِ ، وجعلَ لكُمُ السَّمْعَ والأبصارَ ، والأفئدةَ ( والتسوية . . والنفخ فيه من روح الله مع السمع والبصر ، والفؤاد : تمثل جميعها الجانب العقلى أو الروحى . . أو اللامادى فى الإنسان ) قليلاً ما تَشْكُرونَ ( أى قلما تعبرون عن شكركم بالإيمان به على حسن خلق الله لكم )[1] .

جانبان متقابلان فى الإنسان : جانب يشده إلى الدنو ، ويتركز فى حب الذات أو فى الأنانية . . وآخر يحاول السمو به عن الدنايا ، وتوطينه فى محيط القيم العليا

---

(١) السجدة : ٧-٨ .

للإنسان . وهى قيم التعاون . . والمشاركة . . والمودة . . والأخوة . والإنسان بذلك ثنائى ، وإن كان فى إطار الوحدة الواحدة ، وهى الوحدة الإنسانية . والإنسان بذلك أيضاً فى صراع نفسى وداخلى ، وإن بدا الإنسجام على ظاهره ، كوحدة واحدة .

هناك إذن من بين البشر نفس أو ذات أمارة بالسوء . . وهناك كذلك نفس أخرى أو ذات لوامة ، أى تلوم نفسها على عدم الاستزادة من فعل الخير . رغم أن كل نفس أودع فيها العقل للتمييز بين الفجور والتقوى . . وبين القبيح والحسن : « وَنَفْسٍ وما سَوَّاها . فألهَمَها فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا ( أى أودع فيها الطاقة على التمييز بين المتناقضين ) »[1] .

والتركيب الثنائى فى الإنسان قصد به إذن : أن يهتدى الإنسان بعقله ، ويتغلب عن طريقه على ميوله نحو المادى فى حياته وحده ، وبالأخص تلك الميول التى تمثل جانبه المادى . وهى : الميل إلى اتباع الهوى . . وإلى الشح . . وإلى الركون إلى المحسوس . ولكن الشد . . والجذب بين هذين الجانبين فيه : ينتهى فى نهاية المطاف إلى سيطرة الجانب المادى على الجانب العقلى والروحى فيه ، إذا لم يحزم الإنسان أمره باتباع طريق الإيمان بالله : « وَلَوِ اتبعَ الحقُّ أهواءهُم لفسدتِ السَّموات والأرضُ ومن فيهنَّ ، بل أتيناهُم بذكْرِهِمْ ، فهم عن ذكرِهِمْ معرضونَ »[2] . . « قَدْ أفلَحَ مَنْ زَكَّاها ( أى نماها وطهرها من العبث والفجور عن طريق الإيمان ) . وقد خابَ من دسَّاهَا ( أى أنقصها باتباع الشهوة والهوى ) »[3] .

ومن أجل هذه الثنائية فى الإنسان يتنوع الناس فى المجتمعات والأمم إلى نوعين : نوع يجنح إلى السوء والشر ، وهو شياطين الإنس والجن . . ونوع آخر يترفع عن السوء

---

(١) الشمس ٤ ، ٥ (٢) المؤمنون ٧١

(٣) الشمس ٩ - ١٠

والشر ، ويسلك طريق الله فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، وهو أولياء الله ، أو عباد الرحمن :

« والذينَ إذَا أنْفقُوا لَمْ يُسْرفوا ولم يَقْتُروا ، وكان بين ذلك قَوَاما »[1] :

« وما أُبَرِّىء نفسى ، إنّ النفسَ لأمّارةٌ بالسوء ،

« إلاّ مَا رَحِمَ ربِّى ( بالإيمان والهداية ، فينتقل من النوع الشرير .. إلى الآخر الخيِّر ) »[2].

.. وكل نوع من هذين النوعين ليس مكرهاً على السلوك المعين الخاص به . بل هو مريد ومختار لطريقه فى الحياة : إنْ فى الجانب المادى ، واتباع المادية فى حياته .. وإنْ فى الجانب العقلى أو الروحي ، واتباع هداية الله فى منهج الحيـاة الذى ينتهجه . وترتبط بإرادة الإنسان لأىٍّ من هذين الإتجاهين : إرادة الله ومشيئته فى التوجيه :

« وَلَوْ شِئْنَا لآتينا كلَّ نفسٍ هُداهَا ، ولـكنْ حقَّ القـولُ منِّي : لأملأنَّ جَهنَّمَ مِنَ الجِنَّـةِ والناسِ أجْمَعينَ »[3] .. وقضاء الله بأن يملأ جهنم من القوى المعهودة ، وهى الناس ، والقوى الأخرى غير المعهودة ، وهى الجِنَّـة : هو قضاء يترتب على ثنائية الإنسان وتنوعه فى التوجيه إلى مؤمن .. أو كافر .. وإلى مادى ، أو روحى .. وإلى محسن ، أو مسيء .. إلى متبع الهوى والشيطان ، ومتبع الهـدى ورسالة الله .

● وظهر انقسام الناس وتنوعهم إلى هذين النوعين بعد أن أرسل الله برسالته إليهم :

« كانَ الناسُ أمةً واحدةً ( وهم نواة البشرية الممثلة فى آدم وحواء ) فبعثَ اللهُ

---

(1) الفرقان ٦٧ (2) يوسف ٥٣

(3) السجدة ١٢

النبيينَ : مبشّرينَ ، ومنذرينَ ، وأنْزَلَ مَعَهُمُ الكتابَ بالحقِّ ليحكُمَ بَينَ النّاسِ فيما اختلفوا فيه »

« وما اخْتلفَ فيهِ إلاّ الذينَ أُوتُوهُ من بعدِ ما جاءَتهُمُ البيناتُ ، بغياً بينهُمْ »

« فَهَدَى اللهُ الذينَ آمنوا لِمَا اخْتَلَفُوا فيهِ من الحقِّ بإِذنهِ ، واللهُ يهدى مَنْ يَشَاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ »(١) .

* * *

**ما تدعو اليه هداية الله :**

وما تدعو إليه هداية الله : هو عدم الطغيان بالجانب المادى وبالمتع المادية فى الحياة ، وليس الحرمان من هذه المتع أو اعتزال الحياة الدنيا كلية :

« كُلُوا من طيباتِ ما رزقناكُمْ »

« ولا تَطْغَوْا فيه ، فيحلَّ عليكم غَضَبِي ، ومن يَحْلِلْ عليه غضَبِي فقدْ هَوى ( أى سقط فى هاوية الدنايا والمهالك ) »(٢) . .

. . وما تدعو إليه هداية الله ، هو ما يدعو إليه العقل الإنسانى عند استقلاله وعدم تبعيته للهوى . أى لو قدر للعقل الإنسانى أن يتجرد عن هذه التبعية لكان منطقه هو منطق الهداية الإلهية . ولكنه لا يستطيع أن يتجرد إطلاقا عن هذه التبعية . والتجربة التى مر بها آدم وحواء — وهى التجربة فى طاعة الله عندما نهاهما عن الاقتراب من إحدى أشجار الجنة : تثبت أن العقل الإنسانى لا يقدر وحده على أن يدرك طريق السلام والأمان للذات من : الزلل والأخطار : « وَلقدْ عَهِدنَا إلى آدمَ من قبلُ فَنَسِيَ ولم نجدْ له عزماً »(٣) . . « ولقد مكنّاهُم فيما إن مكنّاكُمْ فيهِ ، وجَعَلنا لهم سَمْعاً ،

(١) البقرة ٢١٣
(٢) طه ٨١
(٣) طه ١١٥

وأبصاراً ، وأفئدةً فما أغنى عنهم سمعُهم ولا أبصارُهم ولا أفئدتُهم من شيء إذْ كانُوا يَجْحدُونَ بآياتِ الله ، وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزئون »[1].

.. فقد جاء فى ســـورة الأعراف — تعبيراً عن الأمر بهذه التجربة — قول الله تعـالى :

« ويا آدمُ ! : اسْكُنْ أنتَ وزوجُك الجنةَ ، وكلا منها رغداً حيثُ شئتُمَا ،

« ولا تقربَا هذِه الشَّجرةَ فتـكونَا مِنَ الظالمينَ »[2].

.. ولـكن الجانب المادى فيهما — وهو الميل إلى اتباع الهوى — لم يمكنهما من سلوك طريق الهداية الإلٰهية ، بطاعة ما أمر الله به ، وما نهى عنه فى هـذه التجربة . وجاء التعبير عن عدم طاعتهما ، فى قول الله تعالى فى السورة نفسها :

« فلمَّا ذَاقا الشجرةَ بدتْ لَهُمَا سوءاتُهُما ( أى بدا لهما نقصُهما ، وهو عدم بلوغ المستوى الذى كان ينتظر لهما ، بسبب تصوير الله للإنسان ، بعد خلقه كما جاء فى قوله : « وَلَقَدْ خلقنَاكم ، ثم صوّرنَاكُمْ » . وبذلك أصبح الإنسان بالتصوير فى طبيعته الثنائية يتميز عن الملك فى طبيعته المفردة ، وأمر الملك لهذا بالسجود لآدم : « ثُمَّ قُلنا للملائـكةِ اسجدوا لآدَمَ » . وهذا المستوى الذى لم يصله آدم وحواء فى هذه التجربة هو مستوى الاستقلال فى تقدير الأشياء وفى طاعة الله ) ، « وطَفِقَا يَخْصِفَان عليهما من وَرَقِ الجنــةِ ( أى وأخذا من شدة الحيرة وغلبة الحياء عليهما بعد إكرام الله لهما بالعقل وتفضيلهما على الملائـكة .. يحاولان التسـتر على نقصهما فى التبعية لهواهما بما لا يسترهما فى واقع الأمر ) »[3] .. ولم يجدا أمامهما آنئذ فى مواجهة الله عز وجل إلا أن يعترفا بخطئهما ويطلبا المغفرة والرحمة : « قَالا : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفُسَنَا ، وإنْ لم تغْفِرْ لنا وتَرْحَمْنا لنـكونَنَّ مِنَ الخاسرينَ »[4] .

(1) الأحقاف : 26 (2) الأعراف : 19

(3) الأعراف : 22 (4) الأعراف : 23

.. وقد استجاب الله سبحانه لمّا تضرعا إليه بالغفران ، فغفر لهما هـذه الخطيئة . ولـكن أنزلهما من الجنة ، ووضع نسلهما من بنى الإنسان فى الدنيا بعدهما : موضع التجربة فى الطاعة لله .. إلى يوم أن يشاء الله إنهاء هذه الدنيا بقيام الساعة ، ووقوع الجزاء لمن نجح أو رسب فى هذه التجربة الدنيوية . عبر القرآن عن ذلك بقوله :

« قَالَ: اهْبِطوا : بعضُكم لبعضٍ عدوٌ ( والخطاب بالهبوط هنا لآدم وحواء ، ومعهما إبليس أيضا . وإن كان قد خوطب إبليس بمفرده من قبل بالهبوط فى قوله تعالى :

« قال: فاهْبِطْ منها » . ولـكن ضم إبليس مع آدم وحواء هنا فى خطاب الهبوط .. ليشير إلى أن هناك تلازما فى التجربة بين طرفى الصراع ، لا يفترق الإنسان فى حياته عن إنسانيته الممثلة فى عقله ، ولا عن شيطانه الممثل فى جانبه المادى أو فى شهوته وهواه ) ،

« ولـكُمْ فى الأرضِ مستقرٌ ومتاعٌ إلى حينٍ ( أى لآدم وحواء ـ وأبنائهما من بعدهما ـ ولأبليس استقرار فى هذه الحياة الدنيا إلى وقت معين ) ،

« قال فيها تحيَوْنَ ، وفيها تموتونَ ، ومنها تُخْرَجونَ ( وفى هذه الدنيا ينشأ بنوا آدم — واتباع إبليس منهم — ويموتون فيها .. ثم يبعثون من قبورهم للجزاء ) » (١) .

.. كما استجاب سبحانه لما طلباه من رحمة ، فأرسل رسله إلى بنى آدم : فى مجتمعات وأمم : الواحدة بعد الأخرى .. وفى أجيال : جيلا بعد آخر .. وفى فترات الزمن : فترة بعد أخرى . وأرسلهم بهدايته وبكتابه ليعين نسل آدم على التغلب على الجانب المادى فى الإنسان .. ليعينه على عدم الطغيان باتجاهه المادى .. ليعينه على عدم اتباع الهوى ، والشح والركون إلى منطق الحس والمشاهد وحده .. ليعينه على أن يكون ذا منطق إنسانى . وهو منطق الحـكمة والروحية ، وليس منطق المادية . وتعبيراً عن استجابة المولى هذه ، ورحمة ببنى آدم ، يقول سبحانه :

« يابَنِى آدمَ قدْ أنزلنا عليكم لباساً ( ويعنى باللباس كتاب الله ورسالته ) يُوارِى سوءاتِكُمْ

(١) الأعراف ٢٤/٢٥

( أى هذا اللباس أو الكتاب يعينكم على ستر النقص فيكم ، وهو عدم قدرة العقل لديكم على السيادة على الجانب المادى فيكم دائما ) وريشاً (وفى الوقت نفسه هذا الكتاب زينة ، لأنه يجملكم ويزينكم بقلة الخطأ فى سلوككم وتفكيركم إن اتبعتم هدايته) ولباسُ التقوى ذلكَ خيرٌ ( وهذا اللباس الذى يحمل على تجنب الأخطاء واتقاء الزلات هو خير أنواع اللباس . إذ يبدو الإنسان الذى تستر به فى أجمل صورة وأبهاها ) (١).

● وزينة الماديات ليست زينة تجمل من اتبعها وطغى بها . وإنما الزينة الحقيقية : زينة تجنب الأخطاء فى السلوك ، والتفكير : هى تلك الزينة التى تتفق مع مستوى الإنسان، ومع ما تميز به عن المخلوقات الأخرى : بعقله وإدراكه .

فما فى الدنيا فى واقع الأمر هو لهو ولعب ، وزينة خادعة . وتفاخر بالجاه والأنساب، وتكاثر فى الأموال والأولاد : « إعلموا أنما الحياةُ الدنيا لعب ولهوٌ ، وزينةٌ ، وتفاخرٌ بينكُم ، وتكاثر فى الأموالِ الأولادِ ، كمثلِ غيثٍ أعجبَ الكفارَ نباتُهُ ، ثم يهيجُ فتراهُ مصفرًا ثم يكونُ حُطاما » (٢) . . فما فى الدنيا ينتهى إذن إلى هدم . . أو إلى : لاشىء .

ولهذه القيمة الضئيلة لماديات الحياة ومتعها المحسوسة لا يقيم مالكها — فى نظر الهداية الإلهية — بمقياس الرضاء عند الله ، ولا المحروم منها بمقياس غضبه عليه .

«ولولاَ أنْ يكونَ الناسُ أمّةً واحدةً (أى جماعة واحدة فى الكفر) لجعلنا لمن يكفرُ بالرحمن لِبُيوتِهِم سُقُفا من فضّةٍ ومعارجَ عليها يظهرونَ . ولبيُوتِهِم أبواباً وسرراً عليها يتكئُون . وزُخْرُفا، وإنْ كلُّ ذلكَ لمّا متاعُ الحياةِ الدنيا، والآخرةُ عند ربكَ للمتقين(٣).

أى لأعطيناهم منها الكثير . لأن امتلاكها لا يدل على مستوى رفيع فى الإنسانية ، ولا على قبول عند الله ، بل يعطى الناس متع الحياة : للابتلاء بها . والذين يطغون بها ويركنون إليها وحدها مصيرهم عند الجزاء هو مصير المخربين والفاسدين والعابثين :

---

(١) الأعراف ٢٦ (٢) الحديد ٢٠ (٣) الزخرف ٣٣ — ٣٥

« إنّ الذين لا يَرْجون لقاءنَا ورَضُوا بالحياةِ الدنيا واطْمَأنُّوا بِهَا ، والذينَ هُم عن آياتنا غافلونَ ( وهذه الصفات الأربع — التشكك فى الآخرة والبعث .. والرضاء بالدنيا وحدها .. والإطمئنان بها والإعراض عن رسالة الله — هى صفات الماديين الذين يتبعون أهواءهم، ويشحون بما فى أيديهم ، ويركنون إلى الحس وحده : فى المنطق والتصرف .. هى صفاتهم التى تلازمتهم فى كل عهد : فيما مضى .. وفيما هو حاضر .. وفيما هو آتٍ ) أولئكَ مَأوَاهمُ النارُ بما كانوا يكْسِبونَ(١) .

● .. وما تطلبه الهدايه من موقف :

وما تطلبه هذه الهداية الإلهية من موقف ، إزاء هؤلاء الماديين هو الإعراض عنهم .. هو عدم وضعهم موضع الأمل فى الاستجابة لدعوة الإنسانية من : المودة .. والتعاون .. والصداقة .. هو الحذر والحيطة منهم :.. « فَأَعْرِضْ عمن تَوَلّى عن ذِكْرنا، ولم يُرِدْ إلاّ الحياةَ الدنيَا ( أى لا تتجه إلى هؤلاء الماديين الذين تعرف سماتهم برفض كتاب الله وقرآنه ، إن لم يكن رفضا صريحا فهو رفض عملى ، وصد عن سبيل الله .. وبالتركيز على الحياة الدنيوية ومتعها المادية المحسوسة وحدها . ومن يرفض كتاب الله يرفض الإيمان بالله والعمل بما قام عليه . ومن يركز على الدنيا وحدها يتشكك على الأقل فى البعث أى فى انتهاء الدنيا ، إن لم ينكره ، كما يركن إلى الدنيا ويطمئن بها وحدها ) »(٢) .

والإسلام لا يطلب هذا الموقف السلبى وحده . بل قبله يطلب الموقف الإيجابى وهو الإيمان بهداية الله والعمل به . والعمل بالإيمان هو العمل بحكمة الإنسان وعقله . أى من يسير على هداية الله يسير فى الواقع وفقاً لمقتضيات العقل لو تجرد الانسان عن التأثر بجانبه المادى . وليس إذن بين الوحى والعقل إلاّ التطابق . ولأن العقل قد يجنح ، يكون الوحى معياراً لصحته ، وليس العكس :

---

(١) يونس ٧/٨

(٢) النجم ٢٩

واتل ما أُوحِيَ إليكَ من كتابِ ربِّكَ ، لا مبدِّلَ لكلماتِهِ ، ولنْ تجدَ من دونِهِ مُلْتَحَدا ( أى لاتجد سوى القرآن ملجأ تلجأ إليه فى الهداية )(١) .. ومع الإيمان والعمل بكتاب الله: التضامن التام مع أولئكم الذين يلتزمون الإيمان بالقرآن ، ويتجهون إلى الله فى كل لحظة من لحظات حياتهم :

« وَاصبِرْ نفسَكَ مع الذين يدعونَ رَبَّهم بالغداةِ والعشِيِّ يريدونَ وَجْهَهُ » (٢).

.. وبجانب هذا الموقف الإيجابى القائم على الإيمان والعمل بكتاب الله ، وعلى التضامن مع المؤمنين به المخلصين لربهم : يكون إذن الموقف الآخر . وهو الإعراض وعدم الطاعة لصاحب الاتجاه المادى فى الحياة :

«ولا تُطِعْ من أغفلنَا قلبَهُ عن ذِكْرِنَا ( وهو كتاب الله) واتبعَ هواهُ ، وكانَ أمْرُه فُرُطا ( أى وتجاوز فيه الأمر بالطغيان والتبعية لهواه ) (٣) ..

والإسلام بتحديد هذا الموقف المزدوج من أصحاب الجانب المادى ، لا يقبل من المؤمنين به الإعراض عن المادية والماديين فقط ، فضلا عن عدم قبوله منهم : التقرب إليهم بالمودة : وإنما مع الإعراض عنهم يطلب القرآن :

أولا : العمل بكتاب الله ،

ثانيا : التضامن التام مع المؤمنين به .

والمادية — التى تمثل الجانب المادى فى طبيعة الإنسان — إذن : ليست اعتقاداً فى أصنام أزيلت وانتهى أمرها بفتح مكة . إنما المادية اتجاه إنسانى فى طبيعة الإنسان ، يساوق اتجاه العقل فيه سواء بسواء ، ولكن عندما يبالغ الإنسان فى اتباع هواه .. وفى الميل إلى الشح .. وفى الركون إلى المحسوس وحده . والماديون ليسوا هم مشركى مكة وعبدة

---

(١) الكهف ٢٧ (٢ ، ٣) الكهف ٢٨

الأصنام فيها حول الكعبة وحدهم ، وإنما هم أولئك الذين يتولون عن كتاب الله فى كل وقت ، ولا يريدون إلا الدنيا وحدها .. هم الذين لا يرجون لقاء الله فى الآخرة .. هم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله .

وتعبير القرآن عن الشرك ، هو تعبير عن المادية . وتعبيره عن المشركين ، هو تعبير عن الماديين . وموقفه من الشرك والمشركين ، هو موقفه من المادية والماديين .

* * *

● وبالبعث .. وبوقوع الجزاء .. وبدخول الإنسان مرحلة الحياة الثانية — وهى حياة الآخرة — تنتهى الغاية من ثنائية الإنسان بين الجانب المادى ، والجانب العقلى ، أو الروحى فيه . إذ خلق الإنسان على هذه الثنائية كان من أجل التجربة فى الحياة الأولى ، وهى حياة الدنيا .. كان من أجل تجربة الإيمان والكفر .. والطاعة ، والعصيان لأوامر الرسالة الإلهية .

ومتع الدنيا كانت للإبتلاء والإختبار ، بينما متع الجنة فى الآخرة هى للجزاء .. ونعيم الدنيا ذو متعة خادعة .. بينما نعيم الجنة ذو متعة صادقة . وبينما ثنائية الإنسان كانت فى الدنيا ذات فاعلية فيما بين طرفيها .. هى فى الآخرة ذات إنسجام بين هذين الطرفين .

آدم كان فى الجنة ، ونعيمها إذ ذاك كان نعيما ماديا . والمؤمنون من بنى آدم سينتهى أمرهم إليها ، ونعيمها كذلك نعيم مادى ، لا يتغير إلا من حيث النوع والقيمة :

« مَثَلُ الجنّةِ التى وُعِدَ المتقونَ ، فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيرْ طعمه ، وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربينَ ، وأنهارٌ من عسلٍ مُصَفّى ، ولهم فيها من كل الثّمراتِ ، ومغفرةٌ من ربهم »[1] .. « إنّ المتقينَ فى جناتٍ ونعيمٍ ، فاكهين بما

(١) محمد : ١٥ .

آتاهم ربهم، ووقاهم ربهم عــذابَ الجحيم. كلُوا واشرَبوا ، هنيئاً بما كنتمْ تعملونَ .
متّكئين على سرر مصفوفَةٍ ، وزوجناهُمْ بحور عين . والذين آمَنوا واتّبعَتْهم ذريتهم
بإيمانٍ ألحقنا بهم ذريتَهم، وما ألَتْناهم من عَمَلِهم من شيءٍ ، كُل امْرِىء بما كسبَ رهينٌ .
وأمْددنَاهُمْ بفاكهةٍ ولحمٍ مما يشتهونَ . يتنازعُونَ فيها كأساً لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيمٌ .
ويطوفُ عليهم غلمانٌ لهم كأنهمْ لُؤلؤٌ مكنونٌ » (١) .

فلا يقال الآن : إن المتقين فى الآخرة ماديون ! .

ولا يقال كذلك : إن جزاء الله للمؤمنين به فى الآخرة هو دفعهم إلى الاتجاه المادى والمادية ! .

لا يقال هذا . . ولا يقال ذاك . لأن المادى هو من عصى ربه فى تقييم المتعة المادية فى الدنيا : فى الإقبال عليها . . وفى الوقوف عندها وحدها . . وفى الإسراف فيها ، دون اعتبار لآخرين معه فى مجتمعه وأمته ، ولأن المادية هى الطغيان بالمتع المادية المتاحة للإنسان .

ولكن المؤمنون فى إقبالهم فى الجنة على جزاء لهم بالمتع المادية لم يكونوا عصاة فى مخالفتهم أمراً له سبحانه فى الاستمتاع بها ، ولم يكونوا أيضاً مسرفين فى الاستمتاع بها ، حتى يعتدى بعضهم بإسرافه على البعض الآخر .

إن بغض الله للماديين وللمادية فى الدنيا هو لما يعود إلى الأنانية التى تنبثق عنها ، والتى تضعف كل مشاركة فى القيم الإنسانية . . وتؤهل بعد ذلك للاعتداء ، أو إلى الشحناء والبغضاء بين الناس بعضهم بعضاً . . كما تؤهل للعبث والفساد والطغيان. فالأنانى يسرف فى استمتاعه بالمتع المادية أن يعبث أو يطغى بها ، ولا يشرك ذا حاجة إليها فيها. والأنانى يرتكب الجرائم الإجتماعية . . يرتكب الإعتداء على العرض بالزنا ، وعلى المال بالسرقة ، وعلى النفس بالقتل : فى سبيل تحقيق شهوته أو اتباع هوى فى النفس .

---

(١) الطور : ١٧ ــ ٢٤ .

والمجتمع الأنانى — وهو المجتمع المادى — يستغل مجتمعاً آخر أضعف منه ، ويعتدى على كل قيمه ، ويميت شخصيته ، ويذهب باستقلاله فى سبيل تحقيق هدف استعمارى له ، والأنانى يظلم ولا يعدل ، ويكذب ولا يصدق . . ويعد ثم يخلف ، مرضاة لنفس أمارة بالسوء .

أما المؤمنون فى استمتاعهم بالمتع المادية فى الجنة ، فقد صاروا إلى جزائهم الأخروى ، وهم إخوان متحابون .. أى وهم مشاركون بعضهم لبعض فى القيم الإنسانية:

« إن المتقينَ فى جناتٍ وعيونٍ . ادخلوهَا بسلامٍ آمنينَ ، ونزعنا ما فى صدورهمْ من غلٍ ، إخواناً على سررٍ متقابلينَ ( متكافئين ) . لا يمسُّهم فيها نَصَبٌ وما هم منْها بمُخرجينَ » (١) ... فهم فى آخرتهم بأخوتهم وبملاءمة بعضهم لبعض ، وبزوال الحقد من نفوسهم : قد حققوا رسالة الله التى ناشد الناس جميعاً أن يحققوها من قبل فى دنياهم ، وليس هناك تحديد لما يشاءون هناك : « ادخُلوهَا بسلامٍ ذلك يومُ الخلودِ . لهم ما يَشاءونَ فيها ، ولدينا مزيدٌ »(٢) .

ورسالة الله للإنسان على الأرض التى تطلب الروحية وتدفع المادية لا تتجاوز فى طلبها : أن يلائم الإنسان بين طرفى ثنائيته . . أى بين جانبه المادى وجانبه العقلى أو الإنسانى .. ثم بين كل إنسان وآخر فى الحياة معه فى مجتمعه .. أى تطلب التوازن والعدل .

والمادية هى اتجاه نحو الإخلال بالتوازن ، وبالعدل . وهى إذن مصدر إضرار وإيذاء .

والماديون فى كل مجتمع هم مصادر الضرر فيه .

وإذا كانت الروحية التى تطلبها الرسالة الإلهية هى التوازن والعدل : فالمؤمنون فى استمتاعهم بالجزاء المادى الأخروى ، عدول فيما بينهم ، ومتوازنون فى علاقات بعضهم ببعض . ولذا لم يكن فى صدورهم غل ، وكانوا إخواناً على سرر متقابلين ، لا يتميز أحدهم عن الآخر .

---

(١) الحجر : ٤٥ — ٤٨ .
(٢) ق : ٣٤ — ٣٥ .

رسالة القرآن للناس فى دنياهم هى إذن :

دفع للمادية والماديين فى صراحة : « قَاتِلوا الَّذِينَ لا يؤمنونَ باللهِ ولاباليومِ الآخِرِ ولا يُحرِّمون ما حرَّم الله ورسُولُهُ » (١) .

وتحقيــق للروحية الإنسانية .. أو تحقيق للتوازن بين ثنائية الإنسان فى وحدته وفرده ، وللعدل الإجتماعى بين الناس كافة .

* * *

**ما يستخلص من طبيعة الانسان — وهداية القرآن :**

● الإنسان مخلوق من مادة : فالإنسان الأول — وهو آدم — خلق من طين : « الَّذى أحْسَنَ كلَّ شىءٍ خَلَقَهُ ، وبدأ خَلْقَ الإنسانِ من طِينٍ » (٢) .. وسلالته بعد ذلك مخلوقة من ماء مهين : ثمُ جَعَلَ نسْله من سُلالة من ماءٍ مَهِين » (٣) .

والإنسان من أجل ذلك محس مشاهد ، ويعيش فى عالم محسوس ، يدرك بالحس .

● وعالم الإنسان عالم الإمكانيات المادية . كانت الجنة مقاماً للإنسان الأول ـ وهو آدم ـ والجنة ذات إمكانيات مادية هديدة : « ويَا آدمُ أسْكُنْ أنتَ وزجُك الجنةَ فَكُلا مِنْ حيثُ شئْتُمَا » (٤) .. وكانت الدنيا مقاما لنسله من بعده ، وهى كذلك ذات إمكانيات مادية عديدة : « زُيِّنَ للناسِ حبُّ الشهواتِ من النساء ، والبنينَ ، والقناطيرِ المقنطرةِ من الذهب والفضَّةِ ، والخيلِ المسوَّمَةِ والأنعامِ والحرْثِ ، ذلكَ متاعُ الحياةِ الدنيا » (٥) .. ففى الجنة كل ما تشتهيه النفس . وفى الدنيا كل ما يستمتع به الإنسان من نساء .. ومن عصبية فى قوة الأولاد والدم .. ووفرة فى الأموال من الذهب والفضة .. وزينة فى الخيلاء والفخفخة من الخيل المسومة .. ومصادر الرزق والقوت من أنواع

---

(١) التوبة ٢٩ (٢) السجدة ٧ (٣) السجدة ٨
(٤) الأعراف ١٩ (٥) آل عمران ١٤

الثروة الحيوانية والزراعية . ففيها ما تشتهيه الأعين .. والبطن •• والفرج •• وفيها ما تنشده النفس من جاه القوة فى الأموال والأولاد .

وتستوى الإمكانيات المادية للمتعة والزينة فى الأشباه والنظائر : فى الجنة والدنيا ، وإن اختلف ما فى الجنة عما فى الدنيا : فى النوع •• أو فى القيمة الذاتية لها .

● وليس هناك نوع من الإنسان لا يأكل •• ولا يشرب •• ولا يشتهى المعاشرة الجنسية •• ولايتطلع إلى الجاه والقوة المادية .

● هل يعيش الإنسان منطلقا ، لاتحدد حياته قيود ؟ ••

هل يعيش دون أن يدخل فى إطار تنظيمى يحفظ عليه خطر الإنطلاق .. أو خطر اللامحدودية •• أو خطر الهمجية ؟ .

وضع الإنسان الأول — وهو آدم — عندما وجد فى الجنة : أمام تجربة تنظيمية ، تحد من انطلاقه فى المتع المادية ، وتهىء له جواً إنسانيا حضاريا ، لا يقوم على الاستغراق فى المتع المادية وحدها ، يتفق مع ما ميزه الله به عن الملائكة : بالعقل والقلب ، على نحو ما قال : « ثُمَّ سوَّاهُ ونفخَ فيهِ من روحِهِ ، وجعلَ لكمُ السَّمعَ والأبصارَ والأفئدةَ قليلاً ما تشكرونَ (١) .. فطلب إليه هنا من خالقه : أن يحدد استمتاعه بالإمكانيات المادية المتاحة له فى عالم جنته : « وَلا تقربَا هذهِ الشجرةَ فتكونَا من الظالِمِينَ » (٢) .. ولكن غلب عليه الانطلاق ، هو وزوجه: « فَلَمَّا ذَاقَا الشجرةَ بدَتْ لَهُمَا سَوْءاتُهُما (٣) .. أى عرفا خطأهما ، وعدم نجاحهما فى التجربة .

ووضعت سلالة الإنسان الأول من البشر بعده أمام تجربة كبرى فيما وراء عالم الجنة .. فى الدنيا : « يَابَنِي آدمَ إمَّا يأتِيَنَّكُمْ رسُلٌ منكمْ يقصُّونَ عليْكمْ آياتِي ، فمَنِ

---

(١) السجدة ٩ (٢) الأعراف ١٩

(٣) الأعراف ٢٢

اتقى وأصْلَحَ فلا خوفٌ عليهمْ ولا هُمْ يحزَنُون . والذينَ كذّبوا بآياتِنَا واستكبَروا عَنْهَا ، أولئكَ أصحابُ النارِ هم فيهَا خَالِدونَ » (١) .. وهى تجربة تنظيمية ،على غرار تجربة الجنة لآدم وحواء ..وأمام إمكانيات مادية متاحة للاستمتاع، وللجاه، والقوة، والزينة، على غرار إمكانيات الجنة. وهدف هذه التجربة فى الدنيا هو كذلك: منع خطر الإنطلاق على البشرية ، وخطر الفوضى فيها .. ثم دفع الإنسان عن طريق التنظيم فى الاستمتاع بالإمكانيات المادية القائمة ليعيش الناس فى عالم رغد ، تسود فيه ، الأخوة الإنسانية .. والتكافؤ فى الاعتبار البشرى .. والمشاركة العادلة فى هذه الإمكانيات، وليس التزاحم، والتخاصم ، والتقاتل من أجل الاستمتاع بهذه الإمكانيات المادية .

وتجربة الدنيا أمام البشرية علمت للناس نتيجتها علما مسبقا واضحا قبل أن تنتهى، وهى لم تنته بعد . بينما تجربة الجنة لم تعرف نتيجتها لآدم وحواء — وهى الخروج من الجنة — إلا بعد أن انتهت . إذ أعلم الناس بنتيجة التجربة فى الدنيا : إما إلى الجنة من جديد .. وإما إلى النار ، برسالة الرسل من قبل الله : « إنا أوْحَينا إليْكَ كما أوحَينَا إلى نوحٍ والنبيِّينَ من بعدِهِ ، وأوحينا إلى إبراهيمَ ، وإسماعيلَ وإسحٰقَ ، ويعقوبَ ، والأسباطِ ، وعيسى، وأيوبَ ويونسَ ، وهارونَ ، وسليمانَ ، وآتينا داودَ زبوراً ، ورسُلاقدقصصناهُم عليكَ من قبلُ ، ورسلاً لم نقصُصْهُمْ عليكَ ، وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشّرين، ومنذِرينَ ، لئلا يكونَ للناسِ على اللهِ حُجّةٌ بعدَ الرُّسُلِ ، وكان اللهُ عزيزاً حكيما » (٢) أما نتيجة تجربة آدم فقد كان علمه بالعقاب الذى ترتب على عدم نجاحه فيها بالطاعة لأمر الله : علما متأخراً . وقد اختاره الله للرسالة إلى نفسه .. وإلى حواء معه ، وارتبط الأمل فى طاعته بما أعد به كإنسان : من عقل وإدراك . ولكن إخفاقه فى التجربة كان إخفاقا للعقل البشرى ، وفى عدم استطاعته أن يجد مستقلا من

---

(١) الأعراف ٣٥ — ٣٦

(٢) النساء ١٦٣ — ١٦٥

انطلاق الإنسان : « قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ، وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (١).

● ورسالة الرسل إذن هى تحديد أو تنظيم لانطلاق الإنسان فى الاستمتاع بالإمكانيات المادية القائمة على عالم الانسان.

● ورسالة الرسل بالتالى ليست انتزاعا للإنسان المخلوق من مادة ، وهو يعيش فى عالم الحس المادى ، وتحيط به الإمكانيات المادية لحياته • وجزاؤه فى الآخرة جزاء مادى. لأنها عندئذ لا تكون تنظيما للإنسان ولا إصلاحا بين أفراده ، ولا إحاطة له بجو حضارى إنسانى ، هو جو السلام .. والصفاء .. والتكافؤ فى الاعتبار ، بدلا من جو التخاصم والتقاتل بسبب الانطلاق فى الاستمتاع بالإمكانيات المادية فى عالم الانسان •

● والروحية ليست نقلا للإنسان من هذا الجو المادى ، ولا قطعا لصلاته به • لأنها عندئذ تكون ضارة بالإنسان ، أو عملا على إفنائه • وإنما الروحية هى التنظيم نفسه لعملية استغلال هذه الإمكانيات المادية واستخدامها : لصالح الناس جميعا •

● والدين .. والروحية .. وتنظيم الانتفاع بإمكانيات الحياة المادية .. ورسالة الرسول .. وهداية الله : جميعها تستهدف عدم الإنطلاق فى الاستغلال، واستخدام هذه الإمكانيات ، وعدم الإخلال بالتوازن بين الناس •

● ووجود العقل البشرى فى الإنسان إنما هو لتقبل هذا التنظيم .. أو لتقبل الدين .. أو لتقبل رسالة الرسول .. وهداية الله • وأمارة قبول التنظيم هو أن من قبله :

**أولا** : لا يسرف فى استخدام هذه الإمكانيات لو أتيح له منها قسط كبير ،

---

(١) الأعراف ٢٣

ثانيا يشرك غيره ممن لم تتح له — أو أتيح له منها قسط ضئيل — فيما هو كائن لديه ؛

ثالثا : يقر بالقيم العليا التى تمثلها صفات الله فى علاقته بغيره .. أو بعبارة أخرى: يؤمن بجانب فى وجوده الإنسانى هو أرفع من وجود الإمكانيات المادية ، وهو وجود الله ، ووجود هدايته التى تحدد إطار التنظيم لاستغلال الإمكانيات المادية .

● ويستهدف الدين — كما تستهدف الروحية — وتستهدف الرسالة الإلهية : التوازن فى المجتمع البشرى القائم على التكافؤ فى الاعتبار الإنسانى . وهذا التوازن هو ما يعرف أخيراً بالعدالة الإجتماعية .

● أما المادية — فى مقابل الروحية .. أو فى مقابل الدين .. أو الرسالة الإلهية — فهى تنزع إلى الإنطلاق فى استخدام الإمكانيات المادية فى حياة الإنسان . ومن ثم تنتهى : إلى الإخلال بالتوازن فى المجتمع البشرى .. أو إلى الحيلولة دون تحقيق العدالة الإجتماعية فيه . وأمارة الإتجاه المادى كنزعة تخل بالتوازن :

اولا : الإسراف فى استخدام المتع المادية ، واتباع الهوى فى ذلك ، أو تحكم الأنانية .

ثانيا : الشح والإمساك عن الآخرين أصحاب الحاجة ؛

ثالثا : إنكار القيم العليا .. وبالتالى إنكار الله وصفاته التى تمثل هذه القيم .

● وسيظل الإنسان على صلته بالمادة : إن فى تجربته بالدنيا .. أو فى جزائه بالجنة أو النار فى الآخرة .. كما كان على صلة بها من قبل : فى خلقه .. وفى مقامه الأول بالجنة .

وتاريخ الإنسان هو تاريخ لتطوره مع المادة ، التى هى إمكانيات العيش والحياة المادية .

وما يحصل فى مجتمعاته من تغيير : ناتج عن الصورة التى استخدمت بها هـذه الإمكانيات المادية :

« وإذا أردنا أن نُهلك قرية ( أى مجتمعاً ) أمرنا مترفيها ففسقوا فيها، فحق عليها القولُ فدمّرناها تدميرا »[1].

* * *

مجمل ما تدعو إليه هداية الله :

- يحدد القرآن طبيعة الإنسان ..
- ويحدد — كذلك — وظيفة الرسالة الإلهية نحو هذه الطبيعة .
- ويبدو واضحا من تحديد هذه .. وتلك : أن وظيفة الرسالة الإلهية فى تحديد القرآن ، هى : تنظيم اتجاهات الطبيعة الإنسانية لإفساح مجال لوجود القيم الإنسانية العليا ، وتحققها فى محيط الحياة للمجتمع الإنسانى ، وهى قيم :

السلام ،

والتعاون ،

والتكافؤ ،

والأخوة بين الأفراد جميعا ..

وتحقيق هذه القيم يرتبط بتنفيذ هذا التنظيم وحده . أى يتحقق وجود هذه القيم كنتيجة لهذا التنظيم .

- فالطبيعة الإنسانية فى الفرد — كما يراها القرآن — تتجه نحو الإنطلاق فى السعى نحو الامتلاك ، للمحافظة على البقاء الذاتى .. وهو البقاء الفردى ، دون رعاية للبقاء النوعى فى المجتمع أو فى الأجيال المتعاقبة .

---

(١) الإسراء ١٦

● والرسالة الإلهية تنظيم لهذه الطبيعة فيما تتجه إليه من تجميع وتملك للمال ، على نحو يبقى مجالاً لمجتمع إنساني يسوده : التكافل .. والتوازن .. أو العدل الإجتماعي .

وليس من وظيفة هذه الرسالة : نقل الإنسان من عالم مادي ، وجد من أصل من أصوله — وهو المادة — .. ونشأ فيه .. ويعيش في جوه فقط .. إلى جو آخر غير مادي ، على النقيض منه . فجو الإنسان هو جو مادي : في الخلق .. وفي النمو .. وفي الحركة .. وفي الحياة الأولى على الأرض .. وفي البعث من القبر .. وفي الحياة الآخرة في الجنة ، أو في النار .

● والرسالة الإلهية لا تعزل الإنسان إذن عن هذا الجو . وإنما تحدد علاقته به فحسب .

وعن اتباع هذا التحديد يحل السلام محل التقاتل .. ويحل التكافل محل شره الأنانية أو انطلاقها .. ويحل التكافؤ في الإعتبار البشري محل الاستعلاء والاستضعاف .. وتحل المودة محل الحقد والاندفاع نحو سفك الدماء .

● ورسالة القرآن لذلك ليست لفرد في علاقته بالمسجد فقط دون علاقته بالآخرين ممن يسوسون الأمور ويقومون بالفصل بين الناس .. أو بمن يخضعون لهذه السياسة ويقبلون أمرهم بالفصل بينهم .. إذ طالما هذه الرسالة هي تنظيم لطبيعة الفرد، وحد من انطلاقه : فهي تلحق طبيعة كل فرد فيما يباشره من أمر : صغر أو كبر .. كان خاصاً أم عاماً .

● والرسالة الإلهية إذا كانت تنظيما للفرد في علاقته بالمادة : إن في السعي إليها ، أو في امتلاكها .. فهي تقر النفع بالمادة كما تقر خيرها . وهي تقر هذا .. وذلك : منذ اللحظة الأولى لتبليغها للإنسان . « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا

واشربوا ولا تُسْرفوا ، إنه لا يحب المسرفينَ » (١)

.. وشرّها ليس فى ذاتها . وإنما هو فى الإسراف فيها ، أو فى الانطلاق نحو اقتنائها وامتلاكها وحبس ما يقتنى أو يمتلك عن أصحاب الحاجة .

إن ما يسمى إذن بوجود الإمكانيات الاقتصادية — أو بالإمكانيات المادية — فى معيشة الإنسان ، هو موضوع التنظيم لما جاءت به الرسالة الإسلامية .

والموازنة بين الإسلام من جانب وبين النظم الفلسفية التى تعالج تنظيم هذه الإمكانيات من جانب : هو فى الآثار الإيجابية أو السلبية التى تترتب على تطبيق أىّ منهما .

فشعار المؤمن نحو غيره فى مجتمعه — كما جاء فى وصف الأبرار فى سورة الإنسان — فى قوله الله تعالى هو : « وَيُطعِمونَ الطعامَ على حُبِّه : مسكيناً ، ويتيماً ، وأسيراً . إنما نطعِمُكم لوجْهِ اللهِ ، لانريدُ منكمْ جزاءً ولا شُكورا . إنَّا نخافُ من ربنا يوماً عَبُوساً قَمْطَريرا »(٢) وهو شعار أداء الواجب لذاته .. وشعار المشاركة أوالتكافل الإجتماعى ، حبا فى الله وإيمانا به ، وفى المصلحة العامة . والنداء الذى يوجه للمؤمنين عامة فى شأن ما يقتنى هو : « قُلْ لعبادِيَ الذين آمنوا : يقيموا الصلاةَ ، ويُنْفِقُوا مما رزقناهم سِراً وعلانيةً ، من قبلِ أنْ يأْتِيَ يومٌ لا بَيْعٌ فيه ولا خِلالٌ » (٣) .. هو إخلاص لله فى الطاعة .. وإنفاق فى سبيل الله والخير العام مما يملك الإنسان . أما شعاره نحو نفسه ، فهو كما جاء فى الحديث الشريف : « المؤْمِنُ يأكل وَيَشْرَبُ فى مِعًى واحدٍ ( أى لا يأكل كثيراً ليفيض عنه لغيره ) ولـكنّ الـكافرَ يأكُلُ ويشربُ فى سَبْعَةِ أمعاء ( أى يفرط فى الأكل والشرب ، لأنه لا يفكر إلا فى ذاته ) .

وشعار الماديين نحو غيرهم ، هو : فيما يصوره قول الله تعالى : « وَمَا تَأْتِيهِمْ من آيةٍ

(١) الأعراف ٣١ (٢) الإنسان ٨ــ١٠

(٣) ابراهيم ٣١

من آيات ربهم إلاّ كانوا عنها مُعرضينَ . وإذا قيل لهم أنفقوا مِمّا رزَقكُمُ اللهُ قالَ الذين كفروا للذينَ آمنوا : أنُطْعِمُ من لو يشاء اللهُ أطعَمَهُ ، إن أنتم إلاّ في ضلالٍ مبينٍ » (١)

.. أنانية وشح . وشعارهم نحو أنفسهم هو ما تعبر عنه الآية الكريمة :

«والذينَ كَفَروا يَتَمتَّعونَ ويأكلونَ كما تأكلُ الأنعامُ والنارُ مثوىً لهمْ » (٢)

.. أنانية وطغيان ، وإسراف في الاستمتاع .. وتجاهل وإنكار للآخرين في المجتمع .

والملكية الفردية إذن أساس ضروري في الإسلام لاختبار مدى الطاعة في الإنفاق في سبيل الذات ، وفي سبيل الخير العام معا . إذ بدون الملكية الفردية لا يعرف طائع من عاص . وإنما يعرف فقط : نفاق في الاستجابة : « وهُوَ الذى جعلَكُمْ خلائفَ الأرضِ ، ورفعَ بعضَكُمُ فوقَ بعضٍ درجاتٍ ( أى فى الرزق والملك ) ليَبْلُوكُمْ فيما آتاكُمْ ، إنّ ربَّكَ سريعُ العقابِ وإنَّه لغَفورٌ رحيمٌ » (٣) .. « كُلاًّ نُمِد هَؤلاءِ ، وَهَؤُلاءِ من عَطاء ربكَ ، وَما كانَ عطاء ربِّكَ محظوراً . أنظرْ كيف فَضَّلنَا بعضَهُمْ على بعضٍ ( أى فى الرزق والنعمة ) ولَلآخِرةُ أكبر درجاتٍ وأكبرُ تفضيلا » (٤) .. ففى هذه الآيات يعبّر القرآن صراحة عن التفاوت فى ملكية المال . وهو لا يكون إلا إذا كانت الملكية الخاصة قائمة .

والملكية الفردية أساس ضرورى أيضا فى علاقات الناس بعضهم ببعض .. وفى توازن المجتمع .. وفى تبادل الخدمات فيه : « أهُمْ يقْسِمُونَ رَحمةَ ربكَ ؟ نحنُ قسمنَا بينهُمْ معيشَتَهُم فى الحياةِ الدنيَا ، ورفعنَا بعضَهُمْ فوقَ بعضٍ درجاتٍ ( فى ملكية المال ومتع الحياة ) ليَتَّخِذ بعضُهم بَعْضاً سُخْريا ( أى ليمكن أن يتبادل بعضهم مع بعض : الأجور من جانب ، والخدمات من جانب آخر ) وَرحمةُ ربكَ خيرٌ مِّما يجْمَعونَ » (٥) ..

---

(١) يس ٤٧
(٢) محمد ١٢
(٣) الأنعام ١٦٥
(٤) الإسراء ٢٠/٢١
(٥) الزخرف ٣٢

وفى تنظيم الإسلام للإمكانيات الإقتصادية فى حياة البشر — أو فى رسالته إلى الناس بشأن الاستمتاع بالمتع المادية فى الحياة — يرعى مشيئة الإنسان : أى يرعى كرامته كطبيعة تتميز بالعقل فى الوجود . بينما التنظيم الذى تقيمه بعض الأيديولوجيات المادية : يرعى الإلزام والإكراه . فهو يكره على عدم التملك ، ويدفع بالسلطة الجبرية وحدها لتنفيذ تنظيمه فى عدم الاقتناء لتحقيق ما يسمى بالتوازن فى حاجات الناس .

ولذا كان الإسلام نظاماً تراعى فيه الخصائص الإنسانية المميزة : الإرادة الحرة وكرامة العقل .. والمشاركة ذات المسئولية فى عمل المجتمع : وبنائه .. وتماسكه : إنه دين الحضارة .

# الباب الثانى

# صنعة الإنسان حول كتاب الله

- القرآن - والتفسير الموضوعى
- القرآن - والتحديات
  بين الأمس واليوم

## الفصل الأول

# القرآن .. والتفسير الموضوعي

إذا كان المتقدمون من علماء المسلمين خدموا القرآن الكريم بتجلية معانى كلماته وآياته .. وبيان موقعها فى فصاحة العرب : فى الأسلوب والتراكيب، والإعجاز .. واستخلاص الأحكام الفقهية منها .. والاستدلال بها على بعض الآراء والاتجاهات فى العقيدة والمذاهب الكلامية للطوائف المختلفة .. فإن ذلك لم يكن الطريق الأفضل الذى يشير إلى القيمة الذاتية الحقيقية للقرآن ، كدليل صادق على رسالة الرسول عليه السلام. وإنما كان أشبه بتوضيح مفكك للهداية الإلهية . وربما كان التفسير الموضوعى ، أو استخلاص جوانب هذه الهداية ، بحيث تحدد أهداف الرسالة ،هو السبيل الأيسر للإيمان بمستواها الرفيع الذى يعجز عنه البشر . ومحاولة التفسير الموضوعى لم تحظ لديهم ، بمثل ما حظى عندهم : وقوفهم عند حد الآيات .. والعناية بتراكيبها .. وارتباط اللاحق منها بالسابق .

والتفسير الموضوعى ليس تفسير جملة من الآيات .. ولا استخلاص مضمونها فى وحدة قرآنية واحدة . وإنما هو استخلاص مضمون الكتاب ككل،من نظر موضوعية شاملة مرة .. أو استخلاص موضوع محدد : كمنهج القرآن فى تطوير المجتمع ، أو موقف القرآن من المادية،مرة أخرى .. أو استخلاص هدف السورة الواحدة وما عنيت بإبرازه فى إطار الدعوة كلها ،مرة ثالثة .

* * *

## هدف القرآن ، ككل :

● فهدف القرآن جملة ، هو :

**أولا** : مقاومة الشرك المادى •• أو الوثنية المادية . ويظهر هذا الإتجاه بوضوح فى السور والآيات المكية . ومقاومة الوثنية المادية فيما تظهر فيه من ظواهر •• أو فيما توجهه من اتهامات إلى القرآن ، وإلى الرسول عليه السلام •• أو فيما تصف به الله ، أو تتصوره من صفات له : كوجود شركاء له •• أو وجود أولاد منه •• أو فيما تنكره من دعوة القرآن ، كالبعث والجزاء الأخروى .

**والهدف الثانى** : هو تصحيح ما وقع من تحريف أهل الكتاب فى رسالة الله السابقة ، وبالأخص من بنى إسرائيل فى التوراة .. والإنجيل معا . وقد بلغ هذا التحريف قمته فى الشرك بالله وتأليه الإنسان . ويتكفل جزء كبير مما ورد فى السور المدنية ـ وبالأخص فى سورتى آل عمران والمائدة — ببيان تحريف اليهود والنصارى . وقد أشار القرآن إجمالا إلى هذا الجانب : فى قول الله تعالى : « إنّ هذا القرآنَ يَقُصُّ على بَنِي إسرائيلَ ( يهوداً ..ونصارى) أكثرَ الذى هُمْ فيه يَخْتلفونَ .وإنّه لَهُدىً ورحمةٌ للمؤمنينَ . إن ربكَ يقضى بينهم بِحُكْمِه ، وهو العزيزُ العليمُ . فتوكلْ على اللهِ ، إنّكَ على الحقِّ المبينِ »(١) ..

**أما الهدف الثالث فهو** : بناء المجتمع الإسلامى — طبقا لتطوره ، بعد قيامه بيثرب — على أساس : التكافؤ فى الاعتبار البشرى . . والتكافل فيما بين أفراد المؤمنين جميعا ، فيما يحقق بينهم العدل الاجتماعى ، بالبعد عن الإسراف فى الاستمتاع بالمتع المادية المتاحة فى محيط الناس .. وبالإنفاق الحرمنها فى سبيل الخير العام للأمة . وهذا الجانب الثالث تقوم به السور المدنية فى القرآن الكريم .

والحديث الذى يروى ، من أنه : « لا تُشَدُّ الرحالُ إلاّ إلَى ثلاثةِ مَسَاجِدَ : المسجدِ

---

(١) النمل ٧٦ — ٧٩

الحرام .. والمسجد الأقصى .. ومسجد الرسول عليه السلام بالمدينة » .. هو حديث يربط هذه الجوانب الثلاثة لمضمون القرآن ، ككل ، بالمساجد الثلاثة . على معنى : أنه في شد الرحال إلى أي مسجد منها : يتذكر المؤمن جانب الرسالة الذي ارتبط به .. ويتذكر بالتالي ما يجب عليه من المشاركة في تحقيقه :

**مقاومة المادية :**

● فزيارة المسجد الحرام تشد الزائر له . إلى تذكر فساد الشرك وأخطار الوثنية المادية على البشرية على نحو ما سيطرت على جو العهد المكي في تاريخ المجتمع العربي هناك . ومن ثم تدعوه إلى الوقوف في وجهها .. وإلى مطاردتها في أي وقت أو في أي عهد تظهر فيه مرة أخرى في المجتمع الإنساني . وفي تحديد القرآن لمظاهرها لا تخفى معالمها إطلاقا ، مهما حاولت أن تتستر وراء شعارات خادعة : كشعارات الإنسانية .. أو نصرة الكادحين .. أو تحقيق العدل الإجتماعي . فأهم مظاهرها :

**أولا :** الإعراض من الماديين عن دين الله : « وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ » (١) .

**ثانيا :** اشمئزازهم من ذكر الله إذا ذكر وحده : « وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قلوبُ الذينَ لا يؤمنونَ بالآخرةِ ، وإذا ذكر الذينَ من دونِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرونَ » (٢) .

**ثالثا :** إيثارهم الحياة الدنيوية وحدها .. وإلحاحهم في طلبها « فَأَعْرِضْ عمن تَوَلَّى عن ذِكرنا ( كتاب الله ) ولم يُرِدْ إلاَّ الحياةَ الدنيا » (٣) .

**رابعا :** إنكارهم البعث وجزاء الآخرة « وَقَالوا : ماهي إلاّ حياتُنا الدنيا : نَمُوتُ ، وَنَحيا ، وما يُهْلِكنا إلاّ الدَّهْرُ » (٤) .

**خامسا :** تمكّن الشح من نفوسهم : « وَإذا قيل لهم : أَنفقوا مما رَزَقكم اللهُ ( أي

---

(١) يس ٤٥ (٢) الزمر ٤٥
(٣) النجم ٢٩ (٤) الجاثية ٢٤

على الضعفاء .. وأصحاب الحاجة فى المجتمع ) قالَ الذين كَفَرُوا للذين آمنوا : أَنُطعِمُ من لو يَشَاءُ اللهُ أَطعَمَهُ ؟(١) ( يقولون ذلك : سخرية واستهزاء » .

سادسا : إنفاقهم الأموال — إن أنفقوها — فى الصد عن سبيل الله ، وهى : سبيل الخير . . والاطمئنان . . وحسن العلاقات بين الناس : « إنّ الذينَ كَفَرُوا ينفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عن سبيل الله »(٢) .

سابعا: طغيانهم بالمال وبالقوة على غيرهم من المسالمين أو الضعفاء : « وَمَا أَرْسَلنا فى قريةٍ من نذيرٍ إلاّ قالَ مُترفوها : إنا بما أرسلتُم به كافرونَ .وَقالوا : نحنُ أَكثرُ أموالاً وأولاداً ، وما نَحْنُ بمعذَّبينَ »(٣).. « وَلا تطِـع كلَّ حلافٍ مَهِين . همَّازٍ مشاءٍ بنَمِيم . مناعٍ لِلْخيرِ معتدٍ أثيمٍ : عُتُلٍّ بعدَ ذلِكَ زنيمٍ . أَنْ كانَ ذا مالٍ وبنينَ »(٤) .

ثامنا : إسرافهم فى تجاوز العدل .. وإمكانيات الحياة المادية استجابة للأنانية .. وإمعانا فى حرمان الآخرين وإذلالاً لهم : «فاتَّقُوا اللهَ وأطيعونِ . ولا تطيعوا أمرَ المسرفينَ . الذينَ يُفْسِدونَ فى الأرضِ ولا يُصلحونَ »(٥) .

تاسعا: تنكبهم عن الصراط السوى بالإلحاد .. وباللاأخلاقية .. وبسفك الدماء : « وإنَّ الذين لا يؤمنونَ بالآخرةِ عن الصراطِ لَنَاكِبُونَ »(٦) .

عاشرا : إيمانهم بالشواهد والدلائل المادية وحدها ، وإنكارهم ما وراءها من المعانى والقيم الإنسانية : وَقالوا : لن نؤمِنَ لَكَ حتى تَفْجُر لنا من الأرضِ ينبوعاً . أو تكون لك جنَّةٌ من نخيلٍ وعنبٍ ، فتفجِّرَ الأنهارَ خلالَها تفْجيرا . أوْ تُسْقِطَ السماءَ ، كما زعمتَ ، علينَا كِسَفا ، أوْ تأتِيَ باللهِ والملائـكة قبيلاً . أو يكونَ لَكَ بيتٌ من زخرفٍ ، أوترقَى فى السماءِ ، ولنْ نؤمِنَ لِرُقِيِّكَ حتى تُنزِّلَ علينا كتاباً نقرؤه »(٧) .

---

(١) يس ٤٧ (٢) الأنفال ٣٦
(٣) سبأ ٣٤/٣٥ (٤) القلم ١٠ــ١٤
(٥) الشعراء ١٥٠ــ١٥٢ (٦) المؤمنون ٧٤ (٧) الاسراء ٩٠ــ٩٣

**حادى عاشر** : استهدافهم من معارضة الدين : التفرّد بالسلطة وبالسيادة على المجتمع .. وعلى العالم فى غير نقد : « وَلا تَقُولوا لما تَصفُ ألسِنَتُكمُ الكذبَ : هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ لتفتروا على اللهِ الكذبَ » (١) .

وأما ادعاءات هؤلاء الماديين بالنسبة للقرآن — وكذلك بالنسبة لكل رسالة إلٰهية — فيدعون :

( أ ) أن القرآن من عمل الرسول .. وليس وحيا إلهيا : « وقالَ الذينَ كفَرُوا : إنْ هذا إلا إفكٌ افتراهُ ( أى تقوله وألفه ثم نسبه إلى الله كذبا وافتراء ) وأعانَهُ عليهِ قومٌ آخرونَ » (٢)

(ب) وأنه تلقنه وتعلمه من غيره ، فهو مؤلفه ..وصاحبه:«ولقدْ نعلمُ أنَّهُم يقولونَ: إنَّما يعلِّمُهُ بشرٌ » (٣) .

( جـ ) وأنه مصدر خداع للناس .. وليس مصدر هداية واقعية : « ولما جاءَهُم الحقُ ( القرآن ) قالوا : هذا سِحْرٌ ، وإنَّا بِهِ كافِرونَ » (٤)

( د ) وأنه أساطير .. وخرافات ، لا تقف أمام العقل والتجارب العلمية : « وقالوا : أساطيرُ الأولينَ اكتَتَبَها ، فهى تملى عليه بكرةً وأصيلا » (٥) .

.. كما يصفون الرسول عليه السلام :

١ — بأنه ساحر : يخدع غيره بدعوته « قال الكافرونَ : إنَّ هــذا لَسَاحِرٌ مبينٌ » (٦) .

٢ — وبأنه مجنون ، إذ يتطاول بنقد الوضع القائم للمجتمع ويعلو على زعمائه وكبرائه :

---

(١) النحل ١١٦ (٢) الفرقان ٤
(٣) النحل ١٠٣ (٤) الزخرف ٣٠
(٥) الفرقان ٥ (٦) يونس ٢

« وقالوا : يا أيُّها الذي نُزِّلَ عليه الذِّكْرُ ( أى القرآن ) : إنَّك لمجنُونٌ »(١) .

٣ — وبأنه من آحاد الناس وليس من العظماء والزعماء : «وَقَالوا : لولاَ نُزِّلَ هـذا القرآنُ على رجلٍ مِنَ القريتين عظيم » (٢) .

* * *

**تصحيح أخطاء أهل الكتاب :**

● أما زيارة المسجد الأقصى ، فإنها تذكر الزائر المؤمن بدعوة الرسول عليه السلام بالجانب الثانى فى رسالة القرآن . هو : جانب تصحيح انحرافات أهل الكتاب من بنى إسرائيل ( يهود .. ومسيحين ) : لكتاب الله : التوراة .. والإنجيل من بعده .

وقد تمت زيارة الرسول عليه السلام للمسجد الأقصى بالإسراء إليه ، كما يذكر قول الله تعالى: «سُبحانَ الذى أسْرى بعبده ليلاً من المسجدِ الحرام إلى المسجدِ الأقصى الذى باركنا حَوْله ، لنُريَهُ من آياتنَا ، إنه هُوَ السميعُ البصيرُ » (٣) .. ويروى فى الأحاديث الصحيحة : أنه عليه السلام صلى فى المسجد الأقصى وأمَّ رسل بنى إسرائيل وأنبياءهم . وفى مقدمتهم : موسى .. وعيسى ، إيذانا بأن إمامته فى الصلاة لهم : هى تكليفه من قبل الله فى قرآنه : بتصحيح الانحرافات التى طرأت على رسالة الدين الإلـهى من جانب بنى إسرائيل .

وفى سورة الإسراء يتحدث المولى جل شأنه عن : أن هداية القرآن هى هداية أقوم السبل فى مواجهة ما تبقى من كتاب الله ، أرسل به رسل سابقون : فيقول : « إنَّ هذا القرآنَ يهدِى للتى هِيَ أقْوَمُ(٤) ( أى أقوم سبيل للهداية .. ومعنى ذلك: أن كتاب موسى .. أو عيسى يمثل فقط بقية من هداية الله ، لما قد تعرض له الكتاب من تصحيف ) ..

والقرآن يعيد رسالة الله الحقة فى جوهرها ، التى أرسل بها موسى ، ثم عيسى

---

(١) الحجر ٦ (٢) الزخرف ٣١
(٣) الاسراء ١ (٤) الاسراء ٩

من بعده عليهما السلام : « وَأَنْزَلنا إليكَ الـكتابَ بالحقِّ ( وهو القرآن ) مُصَدِّقا لما بين يديهِ من الـكتابِ ( أى التوراة والإنجيل ) ومهيمنا عليه ، فاحكُمْ بينهم بما أنزلَ الله ( أى إليك .. وهو القرآن ) ولا تتبع أهواءَهُم عما جاءكَ مِنَ الحق »(١) .

.. كما يضع الرسل جميعا سواء فى وجوب الإيمان بهم من المؤمنين برسوله وهو محمد عليه السلام : « قل آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباطِ ، وما أوتى موسىَ وعيسىَ ، والنبيونَ من ربِّهمْ : لا نفرق بين أحدٍ منهم ، ونحنُ له مسلمونَ . ومن يَبْتَغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلنْ يقبلَ منهُ ، وهو فى الآخرةِ من الخاسرينَ »(٢) .

.. ومكة هى من أجل ذلك أصبحت قبلة المؤمنين بالله : من أهل الـكتاب .. أو من المؤمنين بالرسول محمد عليه السلام : « قدْ نرَى تقلبَ وجهكَ فى السماء ، فلنوليننكَ قبلةً ترضاهَا ، فولِّ وجْهَكَ شطْرَ المسجدِ الحرامِ ، وحيث ما كنتُم فولوا وجوهَكُمْ شَطْرَه ، وإن الذين أوتوا الـكتابَ ليعْلمونَ : أنهُ الحقُّ من ربِّهِمْ ، وما اللهُ بغافلٍ عما يَعْمَلونَ »(٣) .. فمكة أول بيت لله . وضعه إبراهيم وإسماعيل ، وإبراهيم يعود إليه فى النسب : محمد عليه السلام .. كما يعود إليه رسل بنى إسرائيل ، وأنبياؤهم : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكةَ : مباركاً ، وهدًى للعالمينَ . فيه آياتٌ بيناتٌ : مقامُ إبراهيمَ »(٤) .

**أخطاء أهل الـكتاب :**

● هى أخطاء فى الاعتقاد . إما يجعل الإنسان ابنا لله ، وبذلك يكون شريكا له فى الألوهية على نحو ما قالت اليهود فى عزير .. والنصارى فى المسيح . وقالت اليهود : عزيرٌ ابنُ اللهِ ، وقالت النصارى : المسيحُ ابنُ اللهِ ، ذلك قولُهُمْ بأفواهِهِمْ ، يضاهِئُون

---

(١) المائدة ٤٨
(٢) آل عمران ٨٤/٨٥
(٣) البقرة ١٤٤
(٤) آل عمران ٩٦/٩٧

قولَ الذين كفَروا من قبلُ ( وهم المشركون الماديون عندما قالوا : الملائكة بنات الله ) قاتلهُمُ اللهُ ، أنىّ يؤفكُونَ »(١) .. وإما بجعل الإنسان إلـٰها هو الله ، كما صنع المسيحيون فيما يحكى عنهم فى قول الله تعالى : « لقدْ كفَرَ الذينَ قالوا : إنّ اللهَ هوَ المسيحُ ابنُ مريمَ » (٢) .. وإما بالتثليث ، كما قال المسيحيون أيضا ، فى الله .. وعيسى ومريم ، وحكى عنهم القرآن ذلك فى مثل قوله : « لقـدْ كفَرَ الذينَ قالوا: إنّ اللهَ ثالثُ ثَلاثةٍ ، وما مِنْ إلـٰهٍ إلاّ إلـٰهٌ واحدٌ »(٣) ..

وقد دعاهم القرآن : مصححا لهم هذا الخطأ فى الاعتقاد ، فى قول الله تعالى : « قل يا أهْلَ الـكتابِ تعالَوْا : إلَى كَلِمةٍ سواءٍ بَيْننا وبَيْنَكُمْ :

« ألاّ نعبُدَ إلاّ اللهَ ، ولا نشركَ بِهِ شيئاً ( إنسانا مّا : أو رسولاً مّا )،

« ولا يتخذَ بعضُنَا بعضاً : أرباباً من دونِ اللهَ ،

« فإن توَلَّو فقولُوا . اشهدُوا بأنّا مُسْلِمُونَ » (٤)..

● وأخطاء أخرى تتعلق بالاحتراف بالدين. وصور هذا الاحتراف عديدة ،منها : إخفاء بعض ما جاء فى كتاب الله : التوراة ، أو الإنجيل ، وإظهار البعض الآخر منه، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : « .. تجعلونَهُ قراطِيسَ تُبْدونَها ، وتُخْفُونَ كثيراً » (٥). والهدف من ذلك جعله مصدراً للـكسب ، كما يعبّر قول القرآن الـكريم : « وإذ أخَذَ اللهُ ميثاقَ الذينَ أوتوا الـكتابَ ( من يهود ومسيحيين ) : لتبيننُنّهُ للناسِ ، ولا تـكْتُمونَهُ ، فَنَبَذُوه وَرَاء ظُهُورِهِمْ (أى نبذوا العهد والميثاق ) واشترَوْا بِهِ ثمناً قليلاً ، فبئسَ مَا يَشْتَرُونَ » (٦) ..

وقد طلب إليهم القرآن أن يتبعوا ما جاء فى القرآن ، حتى يقفوا على ما خفى عليهم

---

(١) التوبة ٣٠
(٢) المائدة ٧٣
(٣) المائدة ١٧
(٤) آل عمران ٦٤
(٥) الأنعام ٩١
(٦) آل عمران ١٨٧

فى كتاب موسى ، وعيسى ، إذ يقول لهم : « يا أهْلَ الـكتابِ قدْ جاءكُمْ رسُولُنا (يريد محمداً عليه السلام) يُبَيِّنُ لـكم كثيراً مما كنتمْ تخفون من الـكتابِ »(١) كما هدد زعماءهم ممن يباشرون هذا التحريف ، وأنذرهم بقول الله تعالى : « إنَّ الذينَ يكتمونَ ما أنزلَ اللهُ من الـكتابِ ، ويشترون به ثمنًا قليلاً ، أولئكَ ما يأكُلونَ فى بطونِهِمْ إلاَّ النارَ ، ولا يكلمُهُم اللهُ يومَ القيامَةِ ، ولا يزكّيهِمْ ، وَلَهُمْ عذابٌ أليمٌ »(٢).

.. ومنها الاحتراف بالدين فى صورة تأويله تأويلا محرفا لقصد دنيوى ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « فَبِمَا نقْضِهِم ميثاقَهُمْ (وهم بنو إسرائيل) لَعنَّاهُمْ ، وجَعَلْنا قلُوبَهُمْ قاسيةً ، يُحَرِّفُونَ الـكَلِمَ عن مواضِعِهِ (أى إن بنى إسرائيل لحقتهم لعنة الله وغضبه ، بسبب أنهم نقضوا ميثاق الله فى وجوب كونهم أمناء على دينه : فحرفوا الـكلم عن مواضعه ابتغاء الحياة الدنيا ، وبذلك قست قلوبهم ، فلم يعودوا مباشرين لعمل سوى الفساد والطغيان) »(٣)

● وأخطاء من نوع ثالث تتعلق بالانحراف فى السلوك ، بسبب الوقوع تحت تأثير الإتجاه المادى . وترجع هذه الأخطاء فى جملتها إلى : العصيان .. وعدم طاعة الله فيما يأمر به أو ينهى عنه : كمباشرتهم العمل يوم السبت مع أنهم نُهوا عنه .. وكدخولهم إلى القرية التى كلفوا بالدخول إليها فى طاعة واستسلام لله سبحانه ، فى كبرياء وغطرسة : «وَقُلْنا لهم : أُدخُلوا البابَ سُجَّدا ، وقلنا لهم لا تَعْدُوا فى السبتِ »(٤) ..

.. وإلى اعتدائهم بالقتل على نفوس الأبرياء كقتلهم الأنبياء : « وَقَتْلِهِمُ الأنبياء بغيرِ حقٍّ »(٥) .. وإلى سفك الدماء ، وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم :

---

(١) المائدة ١٥ (٢) البقرة : ١٧٤
(٣) المائدة ١٣ (٤ ، ٥) النساء ١٥٤

« وإذْ أخذنا ميثاقكم: لا تسفكونَ دماءَكمْ، ولا تخرجونَ أنفسَكم من ديارِكمْ، ثم أقررتُمْ وأنتمْ تشهدونَ. ثم أنتم هؤلاء تقتلونَ أنفسَكمْ، وتخرجونَ فريقاً منكمْ من ديارهمْ، تظاهرونَ عليهمْ بالإثم والعدوان، وإن يأتوكمْ أسارَى تفادُوهمْ، وهوَ محرَّمٌ عليكمْ إخراجُهمْ، أفتؤمنونَ ببعضِ الكتابِ وتكفرونَ ببعضٍ؟ »(١) ..

.. وإلى أخذهم الربا .. وأكلهم أموالَ الناسِ بالباطلِ: « فبظلمٍ من الذينَ هادوا حرَّمنا عليهم طيباتٍ أحلتْ لهمْ، وبصدِّهمْ عنْ سبيلِ الله كثيراً. وأخذهمُ الربا وقد نُهُوا عنه، وأكلهمْ أموالَ الناسِ بالباطلِ. وأعتدْنا للكافرينَ منهم عذاباً أليماً »(٢)..

.. وإلى ادعائهم الباطل. كقولهم على مريم بهتانا عظيما: « وقولهم على مريم بهتاناً عظيما » (٣) .. وكقولهم: إنا قتلنا المسيحَ ابنَ مريمَ: « وقولهم: إنَّا قتلنا المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ، رسولَ الله »، وما قتلوه، وما صلبوه، ولكنْ شُبِّهَ لهمْ » (٤) .. وقولهم: لنْ تمسَّنا النارُ إلا أياما معدودة: « وقالوا: لن تمسنا النارُ إلاَّ أياماً معدودةً، قل أتخذْتُمْ عندَ اللهِ عهداً فلنْ يخلفَ الله عهدَهُ؟ أم تقولونَ على اللهِ مالا تعلمُونَ »(٥) .. وقولهمْ نحنُ أبناء اللهِ وأحباؤه: « وقالت اليهودُ والنصارى: نحنُ أبناء اللهِ وأحباؤُهُ» (٦) .. وقولهم: لنْ يدخلَ الجنَّةَ إلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أوْ نصارى: « وقالوا: لن يدخل الجنة إلا منْ كانَ هُوداً أو نصارى، تلكَ أمانيُّهمْ » (٧) .. وقولهم لما هو حلال من الطعام: هذا حرام، كذباً وزورا: « كلُّ الطعامِ كانَ حِلاًّ لبنى إسرائيل إلاَّ ما حرم إسرائيلُ على نفسِهِ من قبلِ أن تنزَّلَ التوراةُ » (٨) ..

.. وقولهم على الله: يدُ الله مغلولةٌ: « وقالت اليهودُ: يَدُ الله مغلولَةٌ، غُلَّتْ

(١) البقرة ٨٤/٨٥ (٢) النساء ١٦٠، ١٦١
(٣) النساء ١٦٣ (٤) النساء ١٥٧
(٥) البقرة ٨٠ (٦) المائدة ١٨
(٧) البقرة ١١١ (٨) آل عمران ٩٣

أيديهم ، ولعنوا[1] بما قالوا.. وقولهم على الله : إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء :

« لقد سمعَ اللهُ قولَ الذينَ قالوا : إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحنُ أغنياء،سنكتب ماقالوا » [2]..

وقد أجمل هذه الأخطاء فى سلوكهم ، قول الله تعالى: « وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم ، والعدوانِ ، وأكلِهمُ السحتَ ، لبئس ما كانوا يعملون . لولا ينهاهُمُ الربانيونَ والأحبارُ ( وهم علماء اليهود وكتابهم ) عن قولِهمُ الإثمَ ، وأكلِهمُ السحتَ ، لبئس ما كانوا يصنعونَ » [3] .. وسجل عليهم لعنة الله فى قوله : « لُعِنَ الذينَ كفروا من بنى إسرائيلَ على لسانِ داودَ ، وعيسى ابنِ مريمَ ، ذلك بما عصَوا وكانُوا يعتدونَ .كانوا لايتناهَوْنَ عن منكرٍ فعلُوهُ ، لبئسَ ما كانُوا يفعلون » [4] ..

وسورتا : آل عمران .. والمائدة ، فى مقدمة السور المدنية التى تبرز خصائص أهل الكتاب وموقف القرآن منهم ، وموقفهم هم من رسالة الله .

* * *

**بناء المجتمع الانسانى :**

● وأخيرا : فإن زيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بيثرب تذكر الزائر له والمصلى به بالهدف الثالث من أهداف القرآن . وهو هدف بناء المجتمع الإسلامى بالمدينة، كى يراجع الزائر نفسه وما يلتزم به إزاء قوة هذا المجتمع وتماسكه : إنَّ فى الارتباط بأفراده .. وإنَّ فى الدفاع عن بقائه .

وقد أقيم المجتمع الإسلامى على أصول عامة فى سياسته الداخلية .. وأخرى فى سياسته الخارجية :

---

(١) المائدة ٦٤ (٢) آل عمران ١٨١
(٣) المائدة ٦٢/٦٣ (٤) المائدة ٧٨/٧٩

● بقاء المجتمع : وتماسكه : وهذان الأمران — بقاء المجتمع وتماسكه — مرهونان باستمرار الإيمان بالله وحده ، وبعدم الشرك به فى أية صورة من صوره .. ثم باستمرار العمل الصالح. وهو العمل طبقا لما جاءت به رسالة الإسلام ، يقول الله تعالى : « وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم ، وعملوا الصالحاتِ :

لَيَستخلفَنَّهُمْ فى فى الأرضِ ، كما استخلف الذينَ من قبلِهِمْ ،

وليمكنَنَّ لهم دينَهُم الذى ارتضى لَهُم ،

وَليبدِّلَنَّهُمْ من بعد خَوْفِهم أمْناً ( وهو الخوف من الزعماء والمستكبرين فى المجتمع .. والخوف من أعداء الله فى داخله وخارجه .. هو الخوف من قلة العدد للمؤمنين وضعف الشوكة لهم .

يَعبُدونَنى لا يشركونَ بِى شيئاً ،

« ومنْ كَفَرَ بعد ذلك فأُولئكَ هُمْ الفاسِقُون »[1] ..

.. فإذا ضعف الإيمان عند قادة المجتمع وزعمائه ، وخرجوا عن جادة العمل الصالح ، واستمرأوا الاعتداء ومباشرة الجرائم فى حكمهم .. والعبث والفساد فى سلوكهم : فإن تغيير قيادة مجتمعهم آنئذ صورة من صور الإرادة الإلٰهية النافذة : « وإذا أَرَدْنَا أن نُهلِكَ قريةً ( أى مجتمعا ) أمرنا مترفيها ، فَفَسَقوا فيها ، فحقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدميراً »[2] :. « وكذلكَ جَعَلنا فى كلِّ قريةٍ أكابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فيهَا ( أى ليشيعوا فى المجتمع : العدوان .. والفساد .. ومباشرة الجرائم الإجتماعية ) وما يمكرون إلا بأنفسهم ( أى وما يعود أثر عدوانهم ، وفسادهم ، وارتكابهم الجرائم إلا على أنفسهم بتغيير قيادتهم وتحويل مجتمعهم الفاسد إلى مجتمع عادل محسن ) وَمايشعرونَ ( أى بوقوع هذا التغيير إلا فور وقوعه ) »[3] .

---

(١) النور ٥٥ (٢) الإسراء ١٦ (٣) الأنعام ١٢٣

● .. وفى توازن الاقتصاد .. وتحقيق العدل بين أفراد المجتمع :

وفى هذا الجانب يحرص القرآن على عدة أمور ، منها :

اولا : المحافظة على الملكية الخاصة للمال : « أَهُمْ يقسِمُون رحمةَ ربِّكَ ؟ ( والخطاب تأنيب للماديين الوثنيين بمكة عندما اعترضوا على اختيار الرسول محمد عليه السلام للرسالة من ربه: «وقالوا : لَوْلا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيمٍ » [1]) ، نَحْنُ قسمنا بَيْنَهُم معيشَتَهم فى الحياةِ الدُّنيَا ( أى فنحن قادرون على أن نختار من نشاء للرسالة .. بعد أن قسمنا بينهم فى المعايش والأرزاق ) ،

« وَرَفَعْنا بعضَهُم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ( فى المعيشة والأموال ) لِيَتَّخِذَ بعضُهُم بعضاً سُخْريا (أى ليستخدم بعضهم بعضا . فصاحب المال يعطى الأجر على عمل ممن لا يملك المال ، ويستطيع العمل فى الوقت نفسه ، وصاحب الإستطاعة على العمل يقدم عمله لصاحب المال ، ويأخذ أجره منه . وبذلك تتبادل المصالح والمنافع بين الأفراد فى المجتمع.. وهذا التبادل سر من أسرار ارتباطه ( » [2] .. فإذا ألغيت الملكية الخاصة أعوج وضع المجتمع ووقف تبادل المصالح بين الأفراد .

وفى النظام الماركسى فى الوقت الذى يلغى فيه الملكية الخاصة للأفراد .. يحول ملكية المال لطبقة معينة ، ومجموعة أخرى هى مجموعة الحزب . فالحزب يسخر من لا يملكون المال ، ويستطيعون العمل : من أجل العمل ، نظير أجر يتقاضونه من حكومته. وما يسمى فى هذا النظام بالملكية العامة : هو شعار ، الدلولة الحقيقى : ملكية الحزب وعصابة الحكم .

وكذلك إذ يجعل الله ملكية المال ، بجانب وظيفته الإجتماعية ، وسيلة لابتلاء من يملكه فى طاعة الله — والابتلاء مقدمة ضرورية لجزاء الآخرة — فإن الابتلاء يسقط،

---

(١) الزخرف ٣١ (٢) الزخرف ٣٢

إذا لم تكن هناك ملكية خاصة قائمة : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشىء من الخوفِ ، والجوعِ ، ونقصٍ من الأموالِ ، والأنفسِ ، والثمراتِ ، وبشر الصابرينَ . الذين إذا أصابتهمْ مصيبة قالوا : إنا للهِ ، وإنا إليه راجعونَ »[1] ..

فتبادل المصالح بين أفراد المجتمع من جانب .. وتحقيق ابتلاء الله بالمال للإنسان من جانب آخر : يجتمعان فى نظر الإسلام فى بقاء الملكية الخاصة وعدم إلغائها وتحويلها إلى ملكية عامة .

ثانيا : المنفعة العامة للمال الخاص . فكون الملكية ملكية خاصة لا يعنى فى نظر الإسلام : المنفعة الخاصة للمال : بل مع كونها خاصة : منفعتها عامة . ويدل على ذلك قوله تعالى : « واللهُ فضلَ بعضَكُمْ على بعضٍ فى الرزقِ ( أى فهناك تميز فى الملكية والأرزاق.. هناك المتفوق فى ثرائه والأقل منه ثراء .. وهناك المحروم ، وصاحب الحاجة ) فَمَا الذينَ فُضِّلوا برادِّى رزقِهِم على مَا ملكَتْ أيمانُهُم ( ومن بين الذين لا يملكوا — ولا يحق لهم أن يملكوا طالما بقيت لهم صفتهم وهى الرق — الأرقاء الذين يدخلون فى ملك اليمين . ومع كونهم لا يملكون فما يعطونه من أرزاق ممن ملكت يمينهم ، ليس فى واقع أمره : مقتطعا من أموالهم . بل هو حقهم فى مال المالك . وهم والمالك سواء فى الانتفاع بما يملك المالك من مال) فَهُمْ فيهِ سَواء أَفَبِنِعْمَةِ الله يجحدونَ ؟ »[2] .. كما يدل قوله : « ضربَ لكم مثلاً من أنفُسِكم : هَلْ لكم مِمَّا ملكتْ أيمانُكُمْ من شركاء فيما رَزَقْنَاكم ؟ ( أى ليس هناك ممن هم ملك اليمين من الأرقاء : شريك فى رزق السيد وفى ماله ) فأنتمْ فيه سواء ( ومع ذلك فالأرقاء والأسياد سواء فى منفعة المال الذى هو بيد أسيادهم ) تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أنفُسَكم ( أى تحرصون أيها الأسياد على أرقائكم فى معايشهم كما تحرصون على معايش ذواتكم )[3] ..

ولكون منفعة المال الخاص : منفعة عامة يحمل الإسلام من يملكونه : على إنفاق

---

(١) البقرة ١٥٥/١٥٦ (٢) النحل ٧١ (٣) الروم ٢٨

الزائد عن حاجة المالك فى سبيل الخير العام والمصلحة العامة ، تحقيقا لوظيفة المال الاجتماعية . فيقول الله جل جلاله : « آمِنوا باللهِ ورسولِهِ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفينَ فيه (والأموال التى يملكها المؤمنون ملكية خاصة هى التى استخلفهم فيها الله لصالح أنفسهم ولصالح العباد معهم . ولم يحدد الإسلام مقدار ما ينفقه المالك . بل تركه لتقديره هو ولإيمانه بالله وبأمته) فالذينَ آمنوا مِنكم وانفقُوا . لَهُم أجر عظيمٌ »[1] .. كما يقول: « وهُوَ الذى جَعَلكم خلائفَ الأرضِ (أى جعلناكم أصحاب أمر : أجيالا بعد أجيال ) ورفع بعضَكُم فوقَ بعضٍ درجاتٍ (فى الأموال والأرزاق) ليبلوكُمْ فيما آتاكم ، إن ربَّكَ سريعُ العقابِ ، وإنه لغفورٌ رحيمٌ »[2] ..

ولكى تصان المنفعة العامة للمال عن العبث .. ولكى تصل كذلك إلى أصحاب الحاجة فى الأمة : نهى القرآن عن الانحراف فى استخدام المال . فقال : « وَلا تَأْكلُوا أموالَكُمْ بَيْنَكُم بالباطِلِ إذ الحصول على المال من غير طريق مشروع يمنع من أخذه منه عن أن ينفق بعضا منه على الأقل فى سبيل المصلحة العامة ، لأنه يفتقده الآن .. كما يمنع الآخذ له من إنفاقه كذلك فى هذه السبيل . لأن تحصيله له من غير وجه مشروع يدل على أنانيته وعدم اعترافه بغيره معه ) وَتُدلوا بها إلى الحكَّامِ لتأكلوا فريقاً من أموالِ الناسِ بالإثم وأنتم تعلمونَ »[3] .

وهناك إذن سبيلان للانحراف فى استخدام المال . الأول : تحصيله فى المعاملات التجارية والمالية والزراعية عن طريق غير مشروع . والثانى : التواطؤ مع من لهم سلطة الحكم عن طريق الرشوة فى الحيلولة دون وصول الحق إلى أصحابه .

ويجب أن لا ينظر المالك للمال على أن ملكه تعبير عن رضاء الله عنه . وإنما هو للإختبار به فقط . ولذا يجب أن لا يتحايل فى الحصول عليه .. كما يجب أن لا يمسكه

---

(١) الحديد ٧ (٢) الأنعام ١٦٥

(٣) البقرة ١٨٨

فلا يوصل منفعته للآخرين : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذهبَ والفِضَّةَ ، ولا ينفقونَها في سبيلِ اللهِ فبشرْهُم بعذابٍ أليم » (١) .

ومن أجل أن ملك المال ليس تعبيرا عن رضاء الله عن مالكه ، ربما يفوق الكافرُ بالله.. المؤمنَ به ، فيما يملك من المال : « كُلاًّ نُمِدُّ : هؤلاء وَهؤلاء من عطاء رَبكَ ، وما كانَ عطاء ربكَ محظورا ( أى على كافر ) انظرْ : كيف فضَّلنا بعضَهم على بعضٍ ( أى في المال والرزق فى الدنيا ) وَلَلْآخرةُ أكبرُ درجاتٍ ، وأكبرُ تفيضلاً » (٢) ..

● .. وفى الحرب .. والسلام ، من أجل بقاء المجتمع :

ويرى الإسلام أن القتال ضرورة تفرض نفسها على المجتمع المؤمن بالله لدفع الاعتداء عليه .. ولتوفير الأمان والطمأنينة فى الحياة مع أعدائه فى الوقت نفسه . فأعداء المجتمع المؤمن بالله — وهم الملحدون الماديون ، وكذلك المحرفون لدين الله من أهل الكتاب — يضمرون العداء له ، ويتربصون به فى الأزمات والشدائد : « وَلاَ يَزَالونَ يُقَاتِلونَكمْ حتى يردوكُم عن دينكمْ ، إن استطاعوا » (٣) .

وقد جاءت ضرورة الإعداد للقتال فى قول الله تعالى : « كُتِبَ عليكمُ القتالُ وهوَ كُرْهٌ لكمْ ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌ لكم ، والله يَعْلَمَ ، وأنتم لا تعلمونَ » (٤) .

ولكن ليس معنى : أن القتال قد فرض على المؤمنين .. أنهم يباشرونه مع مخالفيهم فى الإيمان ، وإن لم يعتد هؤلاء عليهم . بل مباشرته مقرونة بتلبس أعدائهم بالعدوان عليهم : « لا يَنْهَاكم اللهُ عن الذينَ لم يُقَاتِلوكمْ فى الدينِ ، ولم يخرجوكمْ من ديارِكُمْ : أن تَبَرُّوهم ، وتُقْسِطوا إليهم ، إنَّ الله يحبُّ المقسطين . إنَّمَا ينهاكمُ اللهُ عن الذين قاتلوكُمْ فى الدين ، وأخرجوكمْ مِنْ ديارِكمْ ، وظاهَروا على إخراجكم : أنْ تولَّوْهُم ( أى أن تجعلوهم

(١) التوبة ٣٤ (٢) الاسراء ٢٠/٢١
(٣) البقرة ٢١٧ (٤) البقرة ٢١٦

أولياء وأصدقاء لكم ( وَمَن يتولَّهُم ، فأولئك هُمُ الظالمونَ » (١) ..

وضرورة القتال فى فرضه على المؤمنين أمر أبدى ومستمر فى حياتهم ليوم البعث . لأن الكفر .. والإيمان بالله — كضرورتين من ضرورات المجتمع — باقيان أيضا إلى يوم قيام الساعة : « ولوْ شاء ربُّك لجعَلَ الناسَ أُمةً واحدةً ، ولا يزالونَ مختلفينَ . إلاَّ مَنْ رَحِمَ ربُّكَ ، ولذلِكَ خلقَهُمْ ( أى بسبب الابتلاء فى طاعة الله خلق الله الناس. ونتيجة هذا الإبتلاء : إما الكفر . أو الإيمان به ، وقد جاء أول ابتلاء للإنسان : فى أمر آدم وحواء ، بأمرهما بالامتناع عن الأكل من شجرة معينة فى قول الله تعالى تعالى ) : « وَيَا آدمُ اسكنْ أنتَ وزوجُكَ الجنةَ فكلا من حيث شئْتُما، ولا تقربا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمينَ (٢) وَتَمَّتْ كلمة ربكَ : لأملأنَّ جَهَنَّمْ من الجِنَّةِ ( أى من أشرار الناس غير المعروفين بشرهم لمن هداهم ) والناسِ ( أى المعروفين لغيرهم بأنهم مصدر شر ) أجْمَعِينَ » (٣) ..

وإذا كان مبدأ إنفاق المال فى سبيل المصلحة العامة — أو فى سبيل الله — ضرورة لتماسك الأفراد بعضهم ببعض .. فمبدأ الإعداد للقتال ، والمباشرة الفورية لرد العدوان ضرورة لبقائه ، ككل : على معنى إذا ضعفت المشاركة من الأفراد وتقاعدوا عن مباشرة واجبهم فى وقاية أمتهم من أعدائها .. فالنتيجة اللازمة : هى تغيير مجتمعهم وزواله . وهذا هو معنى : استبدال الله قوما آخرين غير القائمين فى المجتمع ، حال تخاذلهم وتقاعدهم عن القتال ، ذلك الاستبدال الذى جاء فى قول الله تعالى :

« يا أَيُّها الذينَ آمنوا : مَالَكُمْ إذا قيلَ لكم انفِرُوا فى سبيلِ الله اثَّاقلتم إلى الأرض ( أى تباطأتم عن الإستجابة ) أرضِيتُم بالحياةِ الدنيا من الآخرة ؟ ( أى أرضيتم بالاستمتاع بماديات الحياة الدنيا ، ومنها الحرص على حياتكم بعدم الخروج للقتال .. بدلا

---

(١) الممتحنة ٨ ، ٩ (٢) الأعراف ١٩ (٣) هود ١١٩

من الحرص على سلامة القيم العليا التى يلتف حولها المجتمع المؤمن بالله ، والتى تؤدى المشاركة فى صيانتها إلى نعيم الآخرة وجزاء الله فيها ؟ ) فَمَا متاعُ الحياةِ الدنيَا فِى الآخرة إلاَّ قليـل . إلاّ تنفروا يعذِبْـكُمْ عذاباً أليما ( أى فى دنيا كم بالمذلة لـكم من أعدائـكم ) وَيستبدِلْ قوماً غيرَكُمْ (هم أحرص منكم على سلامة الإيمان بالله ) ولا تضروهُ شيئا (بقبولكم المذلة .. ثم بذهاب مجتمعكم ) والله على كل شىء قديرٌ » (١) ..

● .. وفى العلاقة بالمجتمعات الأخرى :

وتقوم علاقة المجتمع الإسلامى مع المجتمعات الأخرى — وهى مجتمعات الإلحاد والوثنية المادية . ومجتمعات أهل الـكتاب — على الحذر والحيطة فى تقبل المشورة .. وعلى عدم الموالاة ، وفى الوقت نفسه: على عدم الإعتداء . لأن عداوة المجتمعات الأخرى للمجتمع الإسلامى عداوة باقية ، ولم تزل تتطلع هذه المجتمعات إلى سقوط المجتمع الإسلامى أو إلى ضعفه على الأقل : « ولا يَزالُ الذينَ كَفَرُوا فى مِرْيَةٍ منهُ ( أى من القرآن ) حتى تأتِيَهُم الساعةُ بغتةً ، أو يأتِيَهُمْ عذابُ يومٍ عقيمٍ المُلْكُ يومئذٍ لله » (٢) ..

فالحذر والحيطة فى تقبل مشورة أهل الـكتاب يدل عليها قوله تعالى: « ولن ترضَى عنكَ اليهود ، ولا النصارَى ، حتى تتَّبِعَ ملَّتَهُمْ ، قل : إنَّ هُدَى اللهِ هو الهُدى ، ولئن أتبعتَ أهواءهم ، بعدَ الذى جاءكَ من العلْمِ ، مالكَ من الله من وَلى ولا نصيرٌ (٣) ( أى على من يقبل مشورتهم من المجتمعات الإسلامية أن يتحمل عاقبة أمرها . وهى عاقبة المذلة .. والانحدار إلى الفناء . وساعتئذ ليس هناك صديق يساعد ولا نصير يعين على الخروج من الشدائد ) ..

والحذر والحيطة فى تقبل مشورة الملحدين يؤخذان من عداوتهم البغيضة لـكتاب الله وقرآنه ، على نحو ما جاء فى قول الله تعالى : « والذينَ لا يؤمِنونَ فى آذانِهِمْ وَقرٌ ،

---

(١) التوبة ٣٨، ٣٩ (٢) الحج ٥٥

(٣) البقرة ١٢٠

وهُو (أى القرآن) عليهم عَمىً »(١) .. وجاء التعبير صريحا عن قبول مشورتهم فى قول القرآن الكريم : « فلا تطِعِ الكافرينَ ، وجاهِدْهم بهِ (أى القرآن) جِهاداً كبيراً »(٢) ..

أما عدم اتخاذ المؤمنين : غيرهم أصدقاء وأولياء ، فالنهى عن اتخاذ ذلك تقصه مثل هذه الآية الكريمة : « يا أيُّها الذين آمنوا لا تتخذُوا الذينَ اتَّخذوا دينَكُمْ هُزُواً ولَعِباً ، من الذين أوتُوا الكتابَ من قَبْلِكُمْ ، والكفارَ : أولياء ، واتقوا اللهَ إن كنتم مؤمنينَ »(٣) ..

* * *

وفى إطار الهدف الرئيسى للقرآن — موزعا على هذه الجوانب الثلاثة : جانب مقاومة الوثنية المادية . . وجانب تصحيح التحريف الذى باشره أهل الكتاب فى رسالة الله .. وجانب بناء المجتمع الإسلامى : فى أصول حكمه ، وفى أخلاقياته فى السلوك والمعاملة — يدور التفسير الموضوعى للقرآن ككل ، بين الإجمال والتفصيل فى تحديد هدفه . يمكن عندئذ أن يعرض كل جانب من هذه الجوانب ، مستوفيا وملما بما جاء به القرآن فى آياته كلها ، بحيث يصح أن يكون دستوراً ينطوى على مبادئه فى الجانب المقصود فى يسر ، وفى غير تطويل .

* * *

**هدف كل سورة على حدة :**

وبجانب استخلاص هدف القرآن — ككل — من سوره المكية ، والمدنية .. واستخلاص ما لكل جانب من جوانب هذا الهدف ، مستقلا بعد ذلك .

وهنا نعرض لبعض النماذج فى استخلاص المطلوب من بعض السور المكية : وهى

---

(١) فصلت ٤٤ (٢) الفرقان ٥٢ (٣) المائدة ٥٧

سورة « الأنعام » هنا . وذلك المطلوب هو ما تستهدفه السورة أولاً وبالذات ، يضاف إليه : ما يستخدمه القرآن فى السورة من تاريخ البشرية فى مجتمعاتها .. أو ما يعد به الله من نعيم ، أو عقاب : للمطيع على طاعته ، وللعاصى على عصيانه وإثمه أو جريمته .

**سورة الانعام :**

● فسورة الأنعام تحرص فى الدرجة الأولى على تحريم تدخل السلطة القائمة : دينية .. أو سياسية ، فى الأموال الخاصة باسم الله ، أو بأى اسم آخر ( كاسم الشعب أو الأمة ) والإعتداء على حرمتها ، لمنفعة شخصية من وراء ذلك ، تعود على ممثلى تلك السلطة .

والسلطة القائمة إذ ذاك فى مكة : كانت سلطة دينية .. سلطة الكهان . والكهان كانوا يمثلون الطبقة الوسطى ، التى تلى الطبقة العليا فى معرفة غيب السماء ، وهى طبقة شياطين الجن . فكان يدعى . أن هؤلاء الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء الدنيا فى حديث الله مع الملائكة ، ثم ينقلون ما يسمعون إلى الكهان . وجاء أدّعاء هؤلاء فى نقلهم علم الغيب عن أولئكم فى قول الله تعالى : « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ ( وهم الكهان ) يعوذُون برجالٍ من الجن فزادوهم رَهَقاً . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لَنْ يبعث الله أحدا » (١) .

والكهان بدورهم يمارسون مع العامة ، وهى الطبقة الدنيا : حرفتهم بما يدعى من علم الغيب ، وينسبونه كذبا إلى الله سبحانه من : حلّ هذا .. وتحريم ذاك ، مما يجرى فى حياتهم . وبالأخص فيما يتصل بثروتهم الحيوانية ، والزراعية . وهى ثروة تمثل الإقتصاد القومى لمجتمعهم فى ذلك الوقت . ونظيرها — ويأخذ حكمها — كل ثروة أخرى يعتمد عليها المجتمع البشرى فى أى وقت وعهد ، كالثروة الصناعية والتجارية فى المجتمعات المتطورة المعاصرة .

وقد واجهت سورة الأنعام هؤلاء الكهان بحقيقة احترافهم بالكهانة .. ومدى

(١) الجن ٦/٧

ما ينتظرهم من جزاء على سوء صنيعهم، والكذب فيه، فى قول الله تعالى : « وَمَنْ أظلمُ مِمَّنِ افترَى على اللهِ كذباً، أو قالَ : أوحِيَ إلَىَّ، ولم يُوحَ إليهِ شيءٌ وَمَنْ قَالَ : سأنزِلُ مثلَ ما أنزلَ اللهُ، ولو تَرَى إذِ الظالمونَ فى غَمَرات الموتِ، والملائكةُ باسِطُوا أيدِيهِمْ : أخرجُوا أنفُسَكُمْ، اليومَ تُجْزونَ عذابَ الْهُونِ، بما كنتُمْ تقولونَ عَلَى اللهِ غيرَ الحقِّ، وكنتم عن آياتِهِ تستكبرونَ » (١) .

ثم أخذت السورة توضح صور تدخلهم فى الأموال الخاصة فى المجتمع المكى إذ ذاك . فذكرت :

● فرضهم نصيبا معينا فى أموال أتباعهم : يؤخذ منها ليعود إليهم وحدهم، تحت ستار: إنه لله مرة .. وإنه لأصنامهم مرة أخرى : « وجَعَلوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ ( أى خلق ) من الحَرْثِ ( الثورة الزراعية ) والأنعام ( والثروة الحيوانية ) نَصِيباً ،

فَقَالوا : هذَا لله، بزعمِهِمْ — وهذا لشركائِنَا ( أى أصنامنا ) ،

« فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ( وإنما يصل إليهم هم . لأنهم القائمون على خدمتها ) ، وما كان لله ، فهو يصل إلى شركائِهِمْ ( أى كذلك يصل إليهم أنفسهم ) سَاءَ ما يَحكمونَ » (٢) ..

● وحجرهم على نوع معين من الثروة الحيوانية .. ونوع آخر من المحاصيل الزراعية ، بحيث لا يباح تناوله ولا الطعام منه إلاّ لمن يأذنون له منها بذلك : « وقالُوا : هَذه أنعامٌ ، وحَرْثٌ حجرٌ ( أى موقوف التصرف فيها ) لا يطعمها إلا من نَشَاء — بزعمِهِمْ — ( ويعنون خدم الأوثان .. والرجال دون النساء ) » (٣) ..

● وتحريمهم استخدام نوع معين من الأنعام : فلا يركب .. ولا يحلب دره ..

---

(١) الأنعام ٩٣ (٢) الأنعام ١٣٦

(٣) الأنعام ١٣٨

ويطلق فلا يمنع من الماء والمرعى : « وأنعامٌ حرِّمَتْ ظُهورُهَا » (١) .. وهذا النوع ثلاث فصائل :

الفصيلة الاولى : البَحِيرة . وهى الناقة التى يشق أذنها ، بعد أن تنتج خمسة أبطن ، آخرها ذكر .

الفصيلة الثانية : السائبة . وهى الناقة التى تطلق ولا تقيد ، ولا تمنع عن المرعى والماء ، إن عاد صاحبها سالما من سفر .. أو خرج من مرض ذا نقاهة . وقد وعد بها ، إن عاد من سفره سالما .. أو شفى من مرضه .

الفصيلة الثالثة : الحام . وهو الفحل الذى أنتجت منه الأنثى من الحيوان : عشرة أبطن . فيقال له : الآن قد حمى ظهره ، فلا يركب ، ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ، ولا مرعى .

وجاء توضيح افتراء الكهان فى هذا المنع والتحريم لهذه الفصائل الثلاثة من النّعم ، فى قول الله تعالى : « ما جَعَلَ اللهُ من بَحِيرةٍ ، ولا سَائبةٍ ، ولا وَصيلَةٍ ، وَلا حَامٍ ، ولكنَّ الذين كفروا يفترونَ عَلى اللهِ الكَذبَ وأكثرُهُمْ لا يعقلون » (٢) ..

● وعدم ذكرهم اسم الله على ما يذبح من الأنعام ، وذكر اسم أحد الأصنام بدلا من المولى جل جلاله ، حتى يكون أكل ما يذبح وقفا على خدمة الصنم الذى ذكر اسمه عليه : «وأنعامٌ لا يذكرونَ اسمَ اللهِ عليهَا ، افتراءً عليهِ ، سيجزيهم وَصفَهُمْ بما كانوا يفترون » (٣) ..

● وقصرهم حل ما فى بطون البحار والسوائم — أن خرج حيا — على الذكور وحدهم دون نسائهم . فإن خرج ميتا فجميعهم شركاء فيه :

---

(١) الأنعام ١٣٨ (٢) المائدة ١٠٣
(٣) الأنعام ١٣٨

وقالوا : مَا فى بطونِ هذه الأنعامِ ( من البحار والسوائب ) خالصةٌ لذكورِنَا ، ومحرمٌ على أزواجنا ،

« وإنْ يكنْ ميتةً فهمْ فيهِ شركاء ، سيجزيهمْ وصفَهُمْ ( أى قولهم هنا : بالحل والتحريم على النحو المبين ) إنه حكيمٌ عليمٌ » (١).

وقد عقب القرآن على صنع هؤلاء الكهان ، وقبول أتباعهم لصنيعهم بقوله :

« قَدْ خَسِر الذين قتلوا أولادَهُمْ سَفَهاً بغيرِ علمٍ (وهذه جريمة كانوا يرتكبونها بناء على توصية الكهان لهم خشية الفقر .. أو سبى أولادهم فى الحرب فيما بينهم .. على نحو ما يشير ذلك قوله تعالى فى هذه السورة : « وكَذلِكَ زَيَّنَ لِكثيرٍ من المشركينَ قَتْلَ أولادِهِمْ : شُركاؤهم لِيُرْدُوهُمْ ( أى ليحطموهم وينهوا وجودهم ) وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دينَهُمْ ( وليخلطوا عليهم الأمر فى شئون توجيههم (٢) » ) ،

« وحَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ ( من الحرث والأنعام على النحو السابق ) افتراء على اللهِ ، قَدْ ضَلُّوا ، وما كانوا مهتدينَ » (٣)

.. ثم أوضح الحلال والحرام فيما يحصل من الثروة الزراعية .. أو يقتنى فى الثروة الحيوانية ، فقال فى شأن الثروة الزراعية : « كُلُوا من ثَمَرِه إذا أثمر ، وآتوا حقَّهُ يومَ حصادِهِ ، ولا تُسْرِفوا ، إنه لا يُحِب المسرفينَ » (٤) .. فتصح فيه بثلاثة أمور :

**الامر الاول** : برفع الحظر عن الاستمتاع بصنوف ما يزرع ويثمر منها : كُلُوا من ثَمَرِه إذا أثمرَ » ،

**الامر الثانى** : إخراج حق أصحاب الحاجة منه ، تحقيقا للمنفعة العامة للمال : « وآتوا حقَّهُ يومَ حَصَادِهِ » ،

---

(١) الأنعام ١٣٨ (٢) الأنعام ١٣٧
(٣) الأنعام ١٤٠ (٤) الأنعام ١٤١

**الامر الثالث :** عدم الإسراف في الاستمتاع به ، كي تتحقق بالإعتدال فيه : فضلة تعود على أصحاب الحاجة .

**الاصل اذن :** هو الحِلّ في الاستمتاع بأصناف المزروعات .. والاعتدال فيما يؤكل ويستمتع به منها .

.. وقال في شأن الثروة الحيوانية : « قل : آلذَّكَرَيْنِ حرَّمَ .. أَمِ الانْثَيَيْنِ ؟ أَمَّا اشْتَمَلتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين ؟

أَمْ كنتُمْ شهداء ، إذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهذا ؟

فمَنْ أظلَمُ مِمَّنِ افترَى على اللهِ كذباً لِيُضِلَّ الناسَ بغيرِ عِلْمٍ ، إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القوْمَ الظَّالِمينَ .

« قُل : لا أَجِدُ فيما أوحِيَ إليَّ محرمًا : على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلاَّ أنْ يكونَ ميتَةً ، أوْ دماً مسفُوحا ، أو لحمَ خنزِيرٍ ، فإنهُ رجسٌ ، أو فِسْقاً أُهلَّ لغيرِ اللهِ به فمن اضْطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ ، فإنَّ ربَّك غفورٌ رحيمٌ » (١) .. فيستنكر القرآن : أن يكون هنا محرم من الأنعام على طاعم يطعم منها ، إلا أن يكون ميتة .. أو دماً مسفوحاً .. أو لحم خنزير .. أو لم يذكر عليه عند ذبحه اسم الله . كما يرخص عند الضرورة : الأكل من هذه الممنوعات بقدر الحاجة : « فمن اضطر غير باغ ، ولا عاد ، فإن ربك غفور رحيم » .

.. كما نقل ( القرآن ) الحل .. والحرمة من مجال الملكية الخاصة في الثروة القومية ( وهي الثروة الزراعية ، والحيوانية ) .. إلى مجال العلاقات الإجتماعية . لأن التدخل في الملكية الخاصة يبدو فيه الإنحراف في التوجيه .. والرغبة في تحصيل المنفعة الخاصة ، ممن بيده سلطة الحل والحرمة . أما التدخل في تنظيم العلاقات بين الأفراد ، بما يحفظ عليها التماسك والبقاء في قوة .. والصفاء فيها : فإنه يستهدف لا محالة : الإصلاح ..

---

(١) الأنعام ١٤٤/١٤٥

والمصلحة العامة التى تعود على كل فرد بالخير . فيقول بعد التعقيب على صنع الكهان ، وجهالة المجتمع المكي الوثنى : « قلْ تعالَوْا أتلُ ما حرَّمَ ربكم عليكم :

● « ألاَّ تُشْرِكوا به شيئا » .. لأن الشرك بالله هدر لكرامة الفرد .. ودعوة إلى قسمة المجتمع إلى مجموعات وطوائف ،

● « وبالوالديْنِ إحساناً » .. لأن الإحسان إلى الوالديْنِ تعبير من الأولاد عن معنى الإنسانية الذى يتملكهم الآن ،

● « وَلا تقتُلوا أولادَكُم مِنْ إمْلاقٍ ، نحنُ نرزُقُكمْ وإيَّاهُم » .. لأن فى قتل النفوس الصغيرة البريئة : تخليا أولاً عن المسئولية الإنسانية التى توضع على الآباء لصالح الأولاد .. ومظهراً ثانيا ينم عن البربرية التى تدفع إليه ،

● « ولا تقْرَبُوا الفواحِشَ ، ما ظَهَرَ منها ، وما بَطَنَ ».. لأن ارتكاب الفواحش — وهى الجرائم الإجتماعية ، كجريمة انتهاك العرض .. وسرقة المال — من شأنه أن يثير الإضطراب ، ويزيد من الحقد فى العلاقات بين الأفراد . والإضطراب والحقد فى العلاقات الإجتماعية من أشد العوامل فتكا فى تقويض المجتمع ،

● « ولا تقْتُلوا النَّفْسَ التى حرَّمَ الله إلاَّ بالحَقِّ ، ذلكُمْ وصَّاكُمْ بِهِ لعلكم تعقلونَ » .. إذ فى قتل النفس التى لم يكن قتلها فى قصاص مثلا : اعتداء واضح على المجتمع نفسه ، يجب تجنبه بكل وسيلة ، إذا أريد لهذا المجتمع أن يبقى فى صفاء .. وفى تماسك ،

● « ولا تقربُوا مالَ اليتيم إلاَّ بالّتِي هِيَ أحْسَنُ حتّى يَبلغَ أشُدَّهُ » .. فالمحافظة على مال اليتيم — وهو الضعيف بنفسه — أمارة على رشد الإنسان فى إنسانيته ، عندما يتولى أمر هذا الضعيف ،

---

(١) الأنعام ١٤٤/١٤٥

● « وأوفوا الكيلَ والميزانَ بالقسْطِ، لا نُكلِّفُ نفساً إلاَّ وُسْعَها » .. والعدل فى المعاملة حسب الطاقة البشرية : أساس فى عدم تفكك المجتمع.. وفى عدم حقد الأفراد بعضهم على بعض،

● « وإذا قلتُمْ فاعْدِلوا ، ولو كان ذا قربى »،. وتجنب الزور فى الشهادة ..واللغو فى الحديث .. والكذب والافتراء فى النقل والرواية : ليس دليلا فحسب على إنسانية الإنسان الشاهد ، والمتحدث ، والحاكى . وإنما هو وسيلة لرفع البغضاء فى علاقات الأفراد مع بعضهم ،

● « وبعهد اللهِ أوْفُوا» .. وعهد الله هو كل عهد لا يستهدف إلاَّ الخير والمصلحة العامة ..كل عهد لا ينطوى على الشر ، والإيذاء ، والانتقام من أحد لحساب أحد . والوفاء به هو أمارة من أمارات النضج فى المعاملات المتبادلة » (١) .

.. فالقرآن إذ يبعد تدخل السلطة القائمة فى الأموال الخاصة لغير مصلحة عامة .. يطلب — فى أمر .. — وفى نهى — تنظيم العلاقات بين الأفراد فى الأسرة ، وفى المجتمع ، للبقاء على تماسك هذه العلاقات فى قوتها وفى صفائها .

فهو يطلب فى تنظيم الأسرة : الإحسان إلى الوالدين .. ورعاية الأولاد ، بتجنب قتلهم خشية الفقر .. أو السبى فى حرب ،

ويطلب فى تنظيم علاقات المجتمع : عدم الاعتداء على الآخرين بالقتل . أو بانتهاك العرض .. أو بسرقة الأموال .

.. كما يطلب صيانة مال الضعيف ، عند مباشرة الوصاية على ماله .. والعدل فى المعاملات المالية والتجارية .. والعدل فى القول والشهادة .. والوفاء بالعهد ، إذا استهدف العهد تحقيق مصلحة عامة ، وهو عهد الله .

---

(١) الانعام ١٥١/١٥٢

.: ويطلب قبل هذا كله : عدم الشرك بالله . لأن فى الشرك بالله سقوطا بالإنسان إلى مستوى أدنى من الأصنام إذا عبد أصناما .. وأدنى من الإنسان ذاته ، إذا اتجه بالخضوع والعبادة لإنسان مّا : رسولٍ أو غير رسول .

وإذا سقط الإنسان عن مستوى إنسانيته لا يستطيع أن يكوّن أسرة ، ولا أن يكون عضواً فى مجتمع إنسانى متماسك .

ولذا : تسمى سورة الأنعام : هذا التنظيم فى علاقات الأسرة ، والمجتمع معاً . بالصراط المستقيم : « وَأَنَّ هَٰذا صراطى مستقيما فاتَّبِعُوه وَلاتَتَّبِعُوا السُبُلَ ، فَتَفَرَّق بكمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ به لعلكم تَتَّقُونَ » (١)

* * *

وبجانب هذا الهدف الرئيسى للسورة : ذكرت ما تعود القرآن أن يذكره فى السور المكيه كلها ، أو بعضها — من:

- إعلان أن القرآن دعوته للهداية . .
- ومن تصورات الوثنيين الماديين لأسباب رفضهم لدعوة القرآن ..
- ومن توضيح قدرة الله على تغيير المجتمع : من وضع وثنى مادى . . إلى وضع إنسانى في الدنيا ، مع الاستشهاد بتاريخ المجتمعات السابقة .
- ومن تطمين الرسول على نجاح دعوته ، رغم شدة المعارضة ، وقسوة المواجهة لدعوته ..
- ومن المسئولية الفردية فى الانحراف ، والتمادى فى المعارضة ، لكل منحرف ومصر على انحرافه ..

---

(١) الأنعام ١٥٣

فالقرآن يعلن دعوته فى قول الله تعالى : « وَهَذا كتابٌ أنزلناهُ مباركٌ ، مُصَدِّقُ الذى بينَ يديهِ

« ولِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى ومَنْ حَولَهَا ،

« والذينَ يُؤْمِنونَ بالآخِرَةِ يُؤْمِنونَ به ، وهم على صَلاتِهِمْ يُحافِظونَ » (١)

وهى دعوة تنطوى على ثلاثة أهداف :

أولا : إن رسالة القرآن هى رسالة الإسلام فى كل كتاب سماوى .. هى رسالة الله للإنسان على الأرض وفى هذه الحياة الدنيا ،

ثانيا : إنها تستهدف تصحيح الوضع البشرى فى شبه الجزيرة أولا ، وهو الوضع المادى فى مجتمعها ، كنقطة بداية لتصحيح المجتمع العالمى كله ونقله إلى وضع إنسانى سليم ،

ثالثا : تطمين الرسول عليه السلام : إن الذين سيؤمنون بالقرآن هم أولئك الذين يؤمنون بالآخرة ، وبالبعث .. أى أولئك الذين لم يقعوا تحت تأثير الإتجاه المادى فى فى سلوكهم ، وفى مواقفهم ، فيقفوا بالسلوك والمواقف : عند حد الدنيا وحدها ، وإنكار الآخرة . ومعنى ذلك .. أن المكيين -- وهم وثنيون ماديون — ليسوا موضع أمل كبير للإيمان بالقرآن .

.. كما يعلنها فى قوله : « قل : إننى هَدَانِى رَبِّى إلىٰ صِراطٍ مستقيمٍ ، دِيناً قِيَماً ، مِلَّةَ إبراهيم حَنيفاً ، وَمَا كَانَ من المشركين » (٢)

وفى الوقت الذى يعلن القرآن فيه دعوته هذه على النحو الذى تحددت به هنا .. يرفق إعلانها : بأنها بعيدة كل البعد عن الخداع .. أى بأنها موضوعية ومجردة عن كل شائبة لا تتصل بالواقع بصلة :

---

(١) الأنعام ٩٢ (٢) الأنعام ١٦٠/١٦١

قل : لا أقولُ لكم : عندِي خزائنُ اللهِ ،
ولا أعْلَمُ الغيبَ ،
ولا أقولُ لكم : إنِّى مَلَكٌ ،
« إنْ أتَّبِعُ إلاَّ مَا يُوحَى إلىَّ ، قلْ : هَلْ يَستوِى الأعْمَى والبصيرُ ؟ أفَلا تتفكرونَ » (١) .

.. فهو عليه السلام — وهو صاحب الدعوة — لا يملك المال لتوزيعه على الأتباع .. وليس هو فى طبيعته فوق البشر ، حتى يدعو تميزه إلى إقبال الناس عليه ... وليس إلا إنسانا يتبع ما يوحي إليه من ربه : فى تبليغه ... وفى الإهتداء به كقدوة مُثْلَى .

.. كما يقص ( أى القرآن ) بعض الأسباب التى يتصورها ويعبر عنها الماديون المكيون : لرفض القرآن . فيقول :

« وقَالُوا : لولاَ أُنْزلَ عليه مَلَكٌ ( أى هلا كان معه ملك يدعم رسالته من عند الله . إذ أنهم كانوا يدعون أنّ الملائكة بنات الله وجعلو بينها وبين الله نسبا : « وَجَعَلوا بَيْنَه وبينَ الجِنَّةِ نَسَباً ، ولقدعلمتِ الجِنَّةُ : إنهم لَمُحْضَرُن » (٢) ) وَلَوْ أنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُون ( أى ولكن نزول الملك هو إعلان على إنتهاء الحياة الدنيوية . ومن ثم لا تكون لهم فرصة للإيمان والعمل به ) » (٣)

ويقول أيضا :

« وقَالُوا : لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ من رَبِّهِ ( أى هلاَّ نزلت عليه أمارة مادية تؤيد صدق رسالته ، كالتى نزلت على موسى ، أو عيسى ، من قبل ) قُل : إنَّ اللهَ قادِرٌ عَلَى أن يُنَزِّلَ آيَةً ، ولكنَّ أكثرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ » (٤) .. ويقول كذلك — منكرين بشرية الرسول — :

(١) الانعام ٥٠ (٢) الصافات ١٥٨
(٣) الانعام ٨ (٤) الانعام ٣٧

« وما قدّروا الله حق قدره ، إذ قالوا : ما أنزلَ اللهُ على بشرٍ من شيء ، قلْ : مَنْ أنزلَ الكتابَ الذى جاء بهِ موسىَ نوراً ، وهدًى للنّاسِ ؟ » (١) ..

.. وفى بداية السورة .. وفى نهايتها أيضا ، يوضح القرآن مدى قدرة الله على تغيير المجتمع . فيقول فى أول السورة :

« ألمْ يروا كمْ : أهلَكنَا مِنْ قبْلِهِمْ من قَرْنٍ ( أى مجتمع ) مَكّنّاهُم فى الأرضِ ما لمْ نُمَكِّنْ لكُمْ ( فكانت لديهم مصادر عدة للقوة والسيادة ) ،

« وأرسلْنَا السمَاء عليهِمْ مِدْراراً ، وجَعَلنَا الأنْهارَ تجرِى مِنْ تحتِهِمْ ( ومن هذه المصادر العديدة للقوة : كان الرخاء فى العيش ، ويسر الحصول على الرزق، بسبب وفرة المياه لرى الزراعة .. وتربية الحيوان .. وشرب الإنسان ) ،

« فأهلَكنَاهُم بذُنُوبِهِم ، وأنشأْنَا من بعدِهِمْ قرْناً آخرينَ ( أى جيلا ومجتمعا آخر على النقيض من سابقه فى السلوك وعبادة الله وحده ) » (٢) .. ويقول فى آخرها :

وهُو الذى جَعَلكُمْ خَلائِفَ الأرضِ ، ورفع بعضَكُم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ليبلُوَكم فيمَا آتاكُمْ ، إنّ ربكَ سريعُ العقاب ، وإنه لَغفورٌ رحيمٌ » (٣) .. فبينما القرآن يريهم فى أول السورة : أن الاعتماد على القوة المادية لا تغنى المجتمع عن سقوطه ، إذا ظل زعماؤه يرتكبون الفحشاء والمنكر ، ويسلكون طريق العبث والفساد، ويكذّبون بالقيم الإنسانية العليا ، التى تمثلها رسالة الله .. إذا به فى آخرها يذكّرهم بأنهم خلفاء لأجيال سبقتهم .. وأنهم الآن موضع اختبار : فى طاعتهم ، أو فى عصيانهم له ، فيما أعطى لهم من نعم ، وبالأخص نعمة المال والجاه .. وعليهم من أجل ذلك أن يعيدوا النظر فى موقفهم من القرآن والإيمان به .

---

(١) الأنعام ٩١ (٢) الأنعام ٦ (٣) الأنعام ١٦٥

.. وفى جانب تطمين الرسول عليه السلام يقول سبحانه :

ولقدْ كُذِّبتْ رسلٌ من قبلِكَ فصبَرُوا على ما كُذِّبوا ، وأُوذوا ، حتى أتاهُمْ نَصْرُنا ،

« ولا مبدِّلَ لكلماتِ اللهِ ( أى لقضائه ولإرادته التى تعبر عنها كلمات الله فيما يعد به رسله من النصر والتأييد ) ولقدْ جاءكَ من نبإِ المرسلينَ »[1] .. ثم عدد القرآن من الرسل مَنْ ساقهم فى قوله :

« وتلكَ حُجَّتنا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ ، نرفع درجاتٍ : مَنْ نشاء ، إن ربَّكَ حكيمٌ عليمٌ .

ووهبنا له إسحاقَ ، ويعقوبَ كُلاًّ هدينا ،

ونوحاً هدينا من قبلُ ،

« ومن ذريته ( أى ذرية إبراهيم ) : داودَ ، وسليمانَ ، وأيوبَ ، ويوسفَ ، وموسىَ ، وهارونَ ، وكذلك نجزى المحسنينَ . وزكريَّا ، ويحْيَ ، وعيسىَ ، وإلياسَ كلٌ من الصالحينَ . وإسماعيل ، واليَسَعَ ، ويونُسَ ولوُطاً ، وكلاًّ فضَّلنَا على العَالَمينَ . ومن آبائهم ، وذرياتهم ، وإخوانهم ، واجتبيناهم ، وهديناهم إلى صراط مستقيم .

ذلك هُدَى اللهِ يَهدِى بِهِ من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لَحَبِطَ عنهم ما كانوا يعملون .

أولئكَ الذينَ آتيناهم : الكتابَ ، والحُكْمَ ، والنبُوةَ ،

فإِنْ يكفُرْ بها هؤلاء . فقدْ وَكَّلنَا بِهَا قوماً ليْسُوا بِهَا بكافرينَ . أُولئِكَ الذينَ هَدَى الله ، فبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه ،

---

(١) الأنعام ٣٤

« قُلْ لا أسْألُكم عليه ( أى على القرآن) أجراً ، إن هو إلاّ ذكرَى للعالمين »(١)

..وطلب منه الإقتداء بالسابقين من الأنبياء والرسل. وطالما هو عليه السلام لا يأخذ أجراً على دعوته .. فليس هناك ما يعوقه عن استمراره فيها ، رغم ما يواجهه من معارضة ورفض لها .

.. والمسئولية الفردية قد أعلنها فى قوله تعالى :

« ولا تكسِب كلُّ نفسٍ إلاّ عليها ، ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرىٰ »(٢) ..

* * *

وبالتفرقة بين الجو المكى للسورة — أية سورة — الذى تحدده العناصر السابقة » وهو جو يتكرر بصورة أو بأخرى فى السور المكية ، ويعد طابعا لها بوجه عام... وبالأمر الخاص الذى يبدو مميزاً فيه سورة عن سورة : يتضح الهدف المقصود من السورة.. مثل ذلك الهدف الذى سقناه هنا فى سورة الأنعام : وهو منع التدخل فى الأموال الخاصة من السلطة القائمة . فإنه كان من العرف الشائع فى المجتمع المكى ، ونظيره يحدث فى كل مجتمع مادى ، على نحو إلغاء الملكية الخاصة فى المجتمع الماركسى الإشتراكى . وهو مجتمع وثنى مادى .

فإذا عرف هدف كل سورة .. وعرف مع ذلك الهدف العام لرسالة القرآن ، عن طريق التفسير الموضوعى للقرآن : كان من اليسير تخطيط حياة الإنسان على أسس موضوعية تكون الأصول العامة لسياسة الحكم فى الإسلام ، وللأخلاق فى السلوك.. وللموقف فى العلاقات الدولية .

وليس معنى استخلاص الهدف الرئيسى من كل سورة ، عن طريق التفسير الموضوعى ، هو أن لا تفسّر الآيات تباعا ، وأن لا توضح الكلمات الغريبة فيها . بل

(١) الأنعام ٨٣ — ٩٠ (٢) الأنعام ١٦٤

مناه : بجانب هذا النوع من التفسير الذى درج عليه المفسرون : يمكن استخلاص الهدف الموضوعى ، كما أشرنا . وبذلك لا يضيع القارىء بين أسطر التفسير المجزأ . وبالأخص ذلك الذى لم تتكون لديه الدّربة على مراجعة الأسلوب التقليدى ، وما يصحبه من جولان ورحلات فى فروع الثقافة العربية المختلفة . ثم جانب آخر يتضح : إعجاز القرآن فى موضوعيته .. وفى ملاءمته للطبيعة الإنسانية .

* * *

**سورة الشعراء :**

وعلى غرار سورة الأنعام : نعرض لسورة الشعراء أيضا ، كسورة مكية : وبقراءة سورة الشعراء يبدو واضحا : أن الهدف من السورة . رفض القرآن لأمرين ادّعاهما الوثنيون الماديون بمكة ، تأثراً بما هم يعيشون فيه من خرافة واعتقاد باطل :

**أولا** : يرفض كتاب الله أن يكون القرآن على نمط الكهانة : يدعى فيها استراق السمع من غيب السماء .. وأن الذى يباشر السمع هم مردة الشياطين . فيقول تعالى :

« وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطِينُ » .. أى وليست لهم صلاحية إطلاقا أن ينزلوا به ،

« وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعونَ » . أى وفى الوقت التى تنتفى لديهم الصلاحية للنزول به . . هم لا يَسْتَطِيعُونَ كذلك أن ينزلوا به . فإذا فقدت الشياطين الصلاحية جملة .. وفقدت القدرة والطاقة على مباشرة إنزاله : فقد تأكد أنهم لم ينزلوا به ،

« إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولونَ » (١) . . ويضاف إلى عدم صلاحيتهم .. وعدم قدرتهم : عزلهم عن سماع الغيب من السماء ، عزلاً تاماً ومؤكداً . وبهذا : يصبح القرآن وحيا من عند الله ، أرسل به رسول إلى المصطفى المختار محمد بن عبد الله عليه السلام .. وليس نمطا من أنماط الكهانة التى يعيشون فى ظلها .

---

(١) الشعراء ٢١٠ — ٢١٢

.. على أنه من جانب آخر . أن الشياطين — وهم أشرار الموجودات — لا تتصل إلا بالأفاكين الكذابين . ومحمد بن عبد الله عليه السلام : عرف بالصدق ، والأمانة بين العرب المكيين على وجه أخص :

هلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ؟

تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ .

« يُلقونَ السمعَ ( أى هؤلاء الأفاكون يلقون ما بسمعهم إلى غيرهم من الشياطين المردة ، كى ينقلوا عنهم ) وأكثرُهُمْ كاذِبونَ ( ومع أنهم يلقون بالسمع إلى الأشرار .. فهم فى أغلبيتهم كاذبون .. أى إنهم إذا سمعوا من شياطينهم كذبا — منسوبا إلى غيب السماء — فإن أغلبهم أيضا لا يتورع أن يضيف إلى ما سمع من كذب : كذباً آخر من عند نفسه ) » (١) ..

وبتوضيح هذا الواقع يتجلى : أن طابع الكهانة بعيد كل البعد عن القرآن ، الذى هو وحى الله ، نزل به جبريل إلى محمد عليه السلام .. كما يتجلى كذب الخرافة — من ناحية أخرى — التى كانت شائعة بين أصحاب السلطة الدينية بين المكيين . وهى أن الكهانة نوع من غيب الله ، جاء به رجال من الجن ، كان يلوذ بهم نفر من الكهان . إذ أن الجن معزولون عزلا تاماً عن علم الغيب : « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولونَ » .. « فَلَمَّا قَضينَا عليهِ الموتَ ما دَلَّهُمْ على موتِهِ إلا دابَّةُ الأرضِ ، تأكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فلما خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجنُّ : أنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيبَ ، مَا لَبِثُوا فى العذابِ المُهِينِ » (٢) ..

.. ثانيا : يرفض كتاب الله أيضا : أن يكون القرآن نمطا من أنماط الشعر .. أى يرفض أن يكون منطويا على كذب الشعراء وخداعهم ، فيقول :

« والشُّعراء يَتَّبِعُهُم الغاوون ( أى الضالون والحائرون . لأنهم يقولون فى الشىء :

(١) الشعراء ٢٢١ — ٢٢٣ (٢) سبأ ١٤

وصفا معينا ، ثم يتبعونه بوصف مضاد له • والحقيقة إذن ضائعة بين الضد •• وضده» .

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ .

« إِلاَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ ، وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً ، وَانْتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ( من أمثال عبد الله بن رواحة •• وحسان بن ثابت •• وكعب بن مالك •• وكعب بن زهير ) (١) ••

•• وبإبعاد طابع الكهانة وطابع الشعر عن القرآن : يصبح القرآن كتاب حقائق •• وكتاب صدق من عند الله .

•• وبالإضافة إلى الهدف المميز فى سورة الشعراء : تذكر السورة أيضا — كسورة مكية — ما تعودت السور المكية أن تذكره ، بجانب الهدف الرئيسى للسورة ، من :

● إعلان القرآن دعوته للهداية • كما جاء فى قول الله تعالى هنا : « وإِنَّهُ لتنزيلُ ربِّ العالمينَ نَزَلَ بهِ الرُّوحُ الأَمينُ • على قلبكَ لِتَكونَ مِنَ المُنْذِرينَ . بلسانٍ عربىٍّ مبينٍ . وإنَّه لَفِى زُبُرِ الأَوَّلينَ . أَوَ لَمْ يكن لَهُم آيَةً : أَنْ يعلَمَهُ علماء بنى إسرائيلَ ؟ • ولو نَزَّلناهُ على بَعْضِ الأَعْجَمِينَ • فَقَرَأَهُ عليهم ما كانُوا بِهِ مُؤْمنينَ » (٢) .. وكما جاء فى قوله : « فلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فتكونَ من المعذَّبين . وأَنْذِرْ عشيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ • واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المؤمنينَ » (٣) ..

● .. ومن توضيح قدرة الله على تغيير المجتمع .. مع الاستشهاد بأحداث التاريخ على هذا التغيير . فقد جاء فيها : قول الله جل جلاله : كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فى قلوبِ المجرمينَ ( أى على نحو عدم إيمان المجتمعات السابقة برسالة رسلهم : استقر فى قلوب المكيين — بسبب إجرامهم — أنهم لا يؤمنون بالقرآن رسالة محمد ، مهما كانت الآيات الدالة على وجوب الإيمان به) . لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، حتَّى يَرَوُا العَذَابَ الاليمَ . فَيَأْتِيَهُمْ

---

(١) الشعراء ٢٢٧ (٢) الشعراء ١٩٢ — ١٩٩ (٣) الشعراء ٢١٣ — ٢١٥

بغتةً وهُم لا يشعرونَ . فيقولوا : هل نحن مُنْظَرون ؟. أفبعَذا بنَا يستَعْجِلُونَ ؟ . أفرأيتَ إن مَتَّعناهم سِنِينَ . ثم جاءهُمْ مّا كانوا يُوعَدُونَ . ما أغنىَ عَنْهُم ما كانُوا يُمَتَّعونَ . وما أهلكْنَا مِنْ قريةٍ إلاَّ لها مُنذِرُون . ذِكْرَى ، وما كُنّا ظَالِمين » (١) .

وقد قصت السورة — مع تأكيد الله تغييره لمجتمع العابثين : « وما أهلكنا من قريةٍ إلاَّ لهَا مُنذِرونَ » — من أحداث التاريخ : ما تستشهد به : على أن ما سيقع لزعماء المكيين الوثنيين الماديين من تغيير ، قد وقع من قبلُ ، لمجتمعات عديدة ، عارضت رسلها بالباطل : قصت أنباء مجتمعات سبعة سبقت المجتمع المكى .. قصت :

مجتمع موسى : من الآية العاشرة .. إلى الآية الثامنة والستين ،

ومجتمع إبراهيم من الآية التاسعة والستين .. إلى الآية الرابعة بعد المائة ،

ومجتمع نوح : من الآية الخامسة بعد المائة .. إلى الآية الثانية والعشرين بعد المائة ،

ومجتمع هود : من الآية الثالثة والعشرين بعد المائة .. إلى الآية الأربعين بعد المائة ،

ومجتمع صالح : من الآية الحادية والأربعين بعد المائة .. إلى الآية التاسعة والخمسين بعد المائة ،

ومجتمع لوط : من الآية الستين بعد المائة .. إلى الآية الخامسة والسبعين بعد المائة ،

ومجتمع شعيب : من الآية السادسة والسبعين بعد المائة .. إلى الآية الحادية والتسعين بعد المائة .

.. ثم أردفت هذه المجتمعات بمجتمع الرسول عليه السلام : ابتداء من الآية الثانية والتسعين بعد المائة .

---

(١) الشعراء ٢٠٠ — ٢٠٩

● .. ومن تطمين الرسول عليه السلام . فذكرت قول الله تعالى : « لعلَّكَ باخعٌ نفسَكَ ( أى قاتل نفسك حزنا وأسفا ) : ألاَّ يكونُوا مؤمنينَ .

« إن نشأْ نُنزِّلْ عليهِمْ من السَّماء آيَةً ( أى مادية ، كما يطلبون ) فظلَّتْ أعناقُهُمْ لهَا خاضعِينَ ( أى من شأنها : أنهم لا يستطيعون إزاءها إلا التسليم والإذعان ) .

« وما يأتيهِمْ مِنْ ذكرٍ مِنْ الرحمنِ محدَثٍ إلاَّ كانُوا عنهُ مُعْرِضِينَ ( ولكنهم جبلوا على المعارضة والكفر بما يأتى به وحى الله . والأمر إذن ليس أمر إقناع بآية مادية أو بأخرى . وإنما الأمر أمر عناد .. وصلف .. ومصلحة خاصة فى المعارضة والتولى عن هداية الله ) »[1] ..

● . وأخيراً من ذكر المسئولية الفردية عن الإنحراف ، والتولى عن دين الله . فقد جاء فى هذه السورة قوله سبحانه : « فَإِنْ عَصَوْكَ فقل : إنى بَرِىءٌ مما تَعْمَلُون. وتوكَّلْ على العزيزِ الرحيمِ ( أى فمسئولية عصيانهم لا تقع عليك أنت — أيها الرسول صلوات الله عليك — وإنما تقع عليهم وحدهم ، وهم المتحملون لها ) »[2] .. وجاء قوله كذلك : « وَسَيَعْلم الذين ظَلَموا ( أى بسبب رفضهم الإيمان ) أىَّ مُنقلبٍ ينقلبُونَ »[3] .

* * *

وعلى هذا النحو من طريقة التفسير يستعين القارىء على استخلاص أهداف السورة المكية .. ثم الأخرى المدنية .. ويصل بذلك إلى الهدف العامِّ للقرآن الكريم . وهو :

— مقاومة الوثنية المادية . وقد عُرفت بمظاهرها .. وبعقيدتها ..

---

(١) الشعراء ٣ــ٥ (٢) الشعراء ٢١٦ــ٢١٧

(٣) الشعراء ٢٢٧

● وتصحيح تحريف أهل الكتاب ، فيما جاءت إليهم من رسالة ..

● وأسس قيام المجتمع الإسلامى .. وبقائه . فى عزة ورفعة .

.. ويصبح بالتالى من غير العسير على المؤمن القارىء لكتاب الله : أن يتعلم منه مباشرة طريق هدايته فى السلوك .. وفى المعاملة .. ويؤمن صدقا بأنه كتاب من عند الله .

## الفصل الثانى

# القرآن .. والتحديات
# بين الأمس .. واليوم

### التحديات الفكرية .. و.. ندية للقرآن فى الماضى :

### تحديات الوثنيه المادية :

● واجهت الدعوة الإسلامية — وهى دعوة لتنظيم الإستمتاع بالحياة المادية التى يعيشها الإنسان على الأرض ، على أساس أخلاقى ، وفى رعاية لكرامة الإنسان ، تحقيقا للعدل الإجتماعى بين الأفراد جميعا — واجهت وهى بمكة : تحديات الوثنية المادية ، أو تحديات الشرك ، واتهامات الماديين : للقرآن بأنه : سحر وخداع .. وبأنه أساطير الأولين اكتتبها الرسول عليه السلام .. وبأنه أضغاث أحلام يصعب تفسيرها .. وبأنه مؤلف ومتقول ، ونسبت افتراء إلى وحى الله .

.. كما واجهت اتهام هؤلاء الماديين ، أو المشركين للرسول عليه الصلاة والسلام ، بأنه :

كاهن .. ومجنون .. وشاعر .. ومسحور ( أى معلل بالأكل والشرب ) وبشر ، وليس بملك .. وأنه ليس من الأثرياء ، ولا من العظماء والزعماء .. وأنه تعلم القرآن ونقله عن غيره .

. وأخيراً واجهت سوء تصورهم لله على أنه ، سبحانه ، جل جلاله :

يلد وينسل ، وأن الملائكة بنات له وأن له شركاء من الجن .. ومن الأصنام . وأنكروا

وحدته فى الألوهية .. كما أنكروا البعث واليوم الآخر .. وحرموا ما أحله الله، استغلالا للأموال الخاصة، لمصالح كهانهم وأصحاب الرياسة الدينية فيهم .

وقد تكفل القرآن الكريم فى السور المكية فيه بالرد على هذه الإدعاءات . ومن قراءتها جميعها تحدد الإتهامات . ومنهج رفضها ونقضها . وسورة الطور تشير إلى كثير مما وجه إلى الرسول عليه السلام، وإليه سبحانه، وإلى رفضه وإنكاره فى صورة تحد أو سخرية واستهزاء فى قول الله تعالى :

فذكِّرْ ! فما أنتَ بنعمةِ ربك بكاهنٍ ولا مجنون. أم يقولون شاعرٌ نتربصُ به ريبَ المنونِ. قلْ تربصُوا فإنِّى معَكمْ من المُتربِّصِينَ . أم تأمُرُهُمْ أحلامُهم بهذا ، أمْ هم قوم طاغُونَ؟

« أم يقولون تقوَّلَهُ ؟ بلْ لا يُؤمنونَ . فليأتُوا بحديثٍ مثْلِهِ إنْ كانُوا صادِقينَ. أمْ خُلِقُوا من غيرِ شىءٍ ( أى من غير خالق ) ؟ أمْ هُمُ الخالِقُونَ ؟. أم خَلَقُوا السمواتِ والأرضَ ؟ ، بل لا يُوقِنُونَ. أم عندَهُمْ خزائِنُ ربكَ ؟ أم هُمُ المصيطرونَ ! . أم لَهُمْ سُلَّمٌ يستمعونَ فيهِ فليأتِ مستمِعُهُم بسلطانٍ مبينٍ ( أى بحجة واضحة ) ؟ .

« أمْ لَهُ البناتُ ، ولكم البنونَ ؟ . أمْ تسألُهمْ أجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلونَ ؟ . أم عندَهُمْ الغيبُ ( عن طريق الرسالة إليهم ) فَهُمْ يَكتُبُونَ ؟ أم يريدون كَيْداً ؟ فالذينَ كَفَرُا هُمُ المَكِيدُونَ.

« أمْ لَهُمْ إلَـهٌ غيرُ اللهِ ؟ ، سبحانَ اللهِ عمَّا يُشْرِكُونَ . وَإنْ يَرَوا كِسْفاً من السماء سَاقِطاً يقولوا . سحابٌ مرْكُومٌ . فذرْهُمْ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذى فيهِ يُصْعَقُونَ » (١).

.. فهذه السورة تشير إلى ادعائهم بالنسبة للرسول عليه السلام : بأنه كاهن .. ومجنون .. وشاعر ، وإلى وصفهم القرآن : بأنه متقوّل ومؤلَّف له ، ونسب إلى الله كذبا ، وإلى وصفهم الله بأنه يلد .. وله شركاء من غيره .

---

(١) الطور ٢٩ — ٤٥

ولتأكيد : أن هذه الإتهامات استهدفت من جانب هؤلاء الماديين والوثنيين: الكيد للرسول عليه السلام .. كما استهدفت تجميد دعوته ، نصحه القرآن عليه السلام بأن ينصرف عنهم ويستمر في دعوته : « فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الذى فيه يُصْعَقُون ».. وذلك بعد أن أكد له : أنهم هم أنفسهم الذين سيصابون وحدهم بأضرار كيدهم : « فالذينَ كَفَروا هُم المَكِيدُونَ » .

وتصدرت سورتا : المائدة ، والأنعام ، بوجه خاص للرد على افتراءات الكهان في الحل والحرمة في أموال الناس ، على نحو قول الله تعالى : « مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ ، ولا سائبةٍ ، ولا وصيلةٍ ، ولا حامٍ، ولكن الذينَ كَفَروا يَفتَرونَ على اللهِ الكَذِبَ، وأكثرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ » (١) .. وقوله : « وجعلوا للهِ مما ذَرَأَ من الحرْثِ والأنعامِ نَصيباً ، فقالوا : هذا : لله ، بزَعْمِهِمْ ، وهذا : لِشُرَكَائِنَا ، فما كان لشركائِهِمْ فلا يَصِلُ إلى اللهِ ، وما كانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إلى شُرَكائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » (٢) ..

**تحديات العقائد والمذاهب الدينية في الشرق :**

لم يبق المجتمع الإسلامي على عهد قيامه بالمدينة خاصا بالمسلمين وحدهم . وإنما بعد فتح مكة لم يدخل المكيون فقط ، ولا العرب في شبة الجزيرة العربية وحدهم في دين الله أفواجا . بل دخله هؤلاء وهؤلاء ، ومعهم تباعا تلك المجتمعات ، مما كانت تظلهم الحضارة الرومانية أو الحضارة الفارسية في الشرق الأدنى ، ثم في الشرق الأوسط ، والأقصى ، وشمال أفريقيا .. إلى آخر ما يعرف من مجتمعات إسلامية في آسيا .. وأفريقيا وأوربا .

ومع امتداد ظل الإسلام على أرض الله اتصل الإسلام برواسب الثقافات القديمة .. والأديان والمذاهب السابقة على الإسلام ، مما كانت لدى أهل الكتاب ، أو من لهم شبهة بكتاب .

---

(١) المائدة ١٠٣ (٢) الأنعام ١٣٦

**تحديات علم الكلام عند اليهود والمسيحيين :**

فاتصل الإسلام بعلم الكلام عند اليهود والمسيحيين ، وابتدأ يراود تفكير المسلمين : بعض أراء لهؤلاء وأولئكم فى مشاكل كانت لهم خاصة : كمشكلة الأقانيم .. ومشكلة الرجعة ، والمهدى المنتظر .. ومشكلة الحلول وعصمة الإمام .. ومشكلة والتجسيد والتشبيه :

وأصبحنا نرى عند متقدمى المدرسة الإعتزالية كأبى الهزيل العلاف : حلا لتعدد صفات الله على نمط حل علم الكلام المسيحى لتعدد الأقانيم . فيرجع الصفات جميعها إلى صفتى العلم والحياة ، ثم يتصور أنهما عين الذات . وعلم الكلام المسيحى — متأثراً بالأفلاطونيه الحديثة — يعود بأقنومى : ابن الله .. والروح القدس .. إلى ذات الله . أى أن الأقانيم الثلاثة لا تشكل فى الوجود إلاّ موجوداً واحداً له صفتان .

.. وأصبحنا نرى أيضا : مشكلة الرجعة فى علم الكلام اليهودى ، وعلم الكلام المسيحى خاصة بعيسى ، يتبناها بعض مذاهب الشيعة بالنسبة للإمام ، كما تصبح الرجعة نفسها من عقائد هذه المذاهب ، وتتفرع عنها : فكرة المهدى المنتظر ، والأحاديث المتصلة بها . وتقوم الرجعة على أساس أن الإنسان المميز بالرسالة أو الأمانة لا يموت . بل يختفى فقط إلى وقت معلوم يظهر بعده حاملا : رسالة الإصلاح للبشر من جديد .

.. أما مشكلة الحلول — التى هى أصلا من روافد الفكر البوذى والبراهمى — وتلقفتها الكنيسة المسيحية لتقيم عليها عصمة البابا فى الرأى . ووجوب الطاعة له فى غير حد وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الكنسية .. فإنها برزت فى الفكر الشيعى بين المسلمين . وتطبيقا لها فى هذا الإتجاه الشيعى يتمتع « الإمام » بالعصمة فى القول والرأى . بل يذهب بعض أتباع الحلول إلى إسقاط التكاليف التى كان الرسول عليه السلام قدوة فى أدائها : عن الإمام المعصوم ، المشاهد ، أو المغيب على السواء .

.. ومشكلة التجسيد والتشبيه عند ا أثيرت أولا فى علم الكلام اليهودى ، ثم

فى علم الكلام المسيحي : أثيرت تحت ضغط الفهم الحسى أو الفهم المادى للمعبود وصفاته، وهو فهم يقوم على قياس الغائب على الشاهد ، الذى تستخدمه الوثنية المادية فى وصف المعبود المعين ، فالوثنية المادية لا تتحرج من وصف المعبود بالذكورة أو بالأنوثة .. وبالزواج .. وبالنسل .. وبالأكل والاستمتاع ، على نحو ما يستمتع الإنسان .

وابتدأنا نرى المشبهة أو المجسمة طريقا لبعض الكلاميين فى تحديد صفات الله التى تعطى فى ظاهرها : الميل إلى ماللإنسان ، تقريبا للمعنى من طاقة العامة على الفهم : كالاستواء على العرش فى قوله سبحانه : « الَّذِي خَلَقَ السمَوَاتِ والأَرْضَ ومَا بَيْنَهُمَا فى ستةِ أيامٍ ، ثم اسْتَوىَ عَلى العرْشِ » (١) .. وكالحديث عن يد الله ، فى قول الله تعالى : « إن الذين يُبَايِعُونَكَ إنَّما يُبَايِعُونَ اللهَ ، يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم » (٢) .. وفى قوله : « بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ ، يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاء » (٣) ..

● تحديات الفكر الفارسى :

.. كما اتصل الإسلام — بعد خروج المسلمين به من شبه الجزيرة — بالفكر الفارسى وهنا عرف المسلمون مذهب المثنويين . والمثنويون هم القائلون بإلـهين فى تعليل نظام الوجود للعالم : إلـه للنور .. وآخر للظلمة . والأنوار فى العالم هى الموجودات العليا ، وعلى رأسها نور الأنوار . بينما الظلمة : للمادة والكائنات التى تبعد عن محيط الأنوار فى الأرض .

وعن اتصال المسلمين بالفكر الفارسى ظهر فى تفكيرهم ما يسمى « بالإشراق » . وهو اتجاه يلائم بين تصور الوجود فى نظام الإسلام على أن الله هو الأول والخالق وحده، وبين ذلك التصور الآخر الذى توحى به المثنوية من ترتيب الموجودات فى النور .. والظلمة . فأطلق على الله: نور الأنوار .. كما أطلق على الملائكة أنهم :أنوار، ونورانيون ،

---

(١) الفرقان : ٥٩ (٢) الفتح ١٠ (٣) المائدة ٦٤

يتلونه فى مرتبة الوجود فى تسلسله .. إلى المادة . وأبرز أصحاب هذا الاتجاه الإشراقى فى التفكير الإسلامى هو السهروردى المقتول فى القرن السادس الهجرى .

● **تحديات الفكر الهندى :**

وانفتح طريق الفكر الهندى أمام المسلمين.وهو تفكير قائم على الدعوة إلى الهروب من الدنيا ، ومن الإستمتاع بمتعها .. هو تفكير صوفى يستهدف فناء الجسم فى الإنسان .. واتحاد روحه مع براها .. الإله الأكبر . وأقبل بعض العلماء من المسلمين على هذا الإتجاه الصوفى ، والربط بينه وبين ما يطلب فى الإسلام من الزهد — بمعنى عدم الإسراف — فى استخدام متع الحياة . فظهر فى الفكر الإسلامى الصوفى : ما يسمى « بوحدة الوجود » وهو مفهوم يعطى تصور اتصال روح الإنسان بالله تعالى .. ثم اتحاده به . وعندئذ يحل الله فى الإنسان ، أو تتحد روحه بذاته جل جلاله . وفى مقدمة أصحاب . « وحدة الوجود » فى الفكر الإسلامى محمد بن العربى . وفى تفسيره للقرآن الكريم : الكبريت الأحمر .. يكشف عن هذه الوحدة الشاملة فيما يفسر به قول الله تعالى : « وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا ، فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (١) .

**تحديات الفكر الوثنى الاغريقى :**

● أما تحديات الفكر الوثنى الإغريقى فقد خلفت فى التراث الفكرى الإسلامى عدة مشاكل . أهمها :

**مشكلة العقل والوحى** . ويقصد بالعقل ما أتى إلى المسلمين عن طريق نقل العلوم إلى اللغة العربية : من فلسفة الإغريق فى أصل الوجود ، وعلته الأولى وبالأخص ما أثر عن أفلاطون وأرسطو .

والفارابى فى كتابه : « نصوص الحكم » : حاول التوفيق بين خصائص الوحى

---

(١) البقرة ١١٥

للرسول عليه السلام ، وما يصل إليه الفيلسوف بسبب تجرده من التأثر بماديات الحياة : إلى الحكمة والصواب فى الرأى . ولكن رغم دقة المحاولة العقلية للتوفيق عنده فإنه لم يوفق إلى إزالة التناقض بين الوحى كعمل إلهى واختيار من الله للإنسان الموحَى إليه .. والحكمة كمستوىً إنسانى يصل إليه الإنسان بجهوده البشرى وجهاده لنفسه .

.. وكذلك مشكلة الشرع والعقل ، ومدى ما يصل إليه العقل البشرى من إدراك الحسن والقبح ، مستقلا عن الشرع ، وما يترتب على إدراكه من وجوب التكاليف بما يذهب إليه الشرع قبل التبليغ للرسالة ، أو فى غيبة هذا التبليغ . وتعرف هذه المشكلة فى المدرسة الإعتزالية باسم : الحسن والقبح العقليين .

.. وكذلك مشكلة الصلاح والأصلح ، أو مشكلة العدل الإلٰهى . وهى تتجه إلى أن العقل البشرى يصل بمنطقه إلى وجوب الأصلح على الله . إذ فى تحقق الأصلح للإنسان يتحقق العدل الإلهى . وتسمى المعتزلة — من أجل احتضانهم لفكرة العدل — باسم أهل العدل . لأنهم يحكمون العقل فى تحديد الصلاح ، وتحديد الأصلح ، ولكنهم يتجاهلون : أن التجربة مع الإنسان الأول ، وهو آدم ، فى الجنة أتت بعدم استطاعة العقل : كشف الأصلح له . وإلا ف : فيم الندم إذ يقول هو وحواء ، متضرعين إلى المولى جل جلاله : « قالا : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفُسَنا ، وإن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنا لنكونَنَّ من الخاسِرينَ »(1) .. فاعترفا بالخطأ والمعصية ، ولم يكن العقل واقيا لهما إذ ذاك من الوقوع فى الخطأ ، فضلا عن هدايتهما إلى الأصلح لها .

.. وقد أخذت مشكلة : « واجب الوجود » فراغا كبيراً فى مؤلفات علم الكلام الإسلامى .. وفى الفلسفة الإسلامية . وهى مشكلة تلقفها بعض فلاسفة المسلمين المشائيين على أنها سند لدعوة الإسلام إلى الوحدة فى الألوهية ، التى واجهت بها الدعوة الإسلامية : الوثنية المادية بمكة ، وجعلتها الضمان لعودة الصفاء إلى رسالة

---

(1) الأعراف ٢٣

إبراهيم وإسماعيل ، ولتصحيح الرسالة الالهية فى تاريخها الطويل من تشويه الشرك والإلحاد .

ومفهوم « واجب الوجود » — كما هو فى فلسفة أرسطو — يسىء فى نقله : إلى الله سبحانه وتعالى ، كما يحدد القرآن الكريم : صفاته ، جل وعلا ، كما يسىء إلى المؤمنين به فى تصورهم إياه . فواجب الوجود فى الفلسفة الأرسطية يطلق على العلة الأولى ، وهى موجود يعشق لكماله . ولكن ليست له فاعلية فى غيره ، فضلا عن أن يكون خالقا له . وكل ما يعطيه لتحديد ذاته : أنه واحد من كل وجه : فى التصور .. وفى الواقع . فليس متعددا فى ذاته . وليس مركبا من أجزاء : حقيقية أو فى التصور . وعن هذا التحديد لذات واجب الوجود فى الفلسفة الأرسطية وقبوله لذى بعض المسلمين نشأت مشكلة الصفات لله فى تصور المسلمين لذاته : هل الصفات لله هى عين ذاته ؟ .. أم هى غيرها .. أم هى لا عينها ولا غيرها .. هل إذا كانت عين الذات ترد إلى صفتى : العلم ، والحياة أولاً .. ثم إلى الذات ؟ أم ترد جميعها مباشرة إلى الذات ؟ . وفى الإجابة عن هذين السؤالين يختلف السلف بين مذاهب علم الكلام عن المعتزلة والفلاسفة المسلمين .. ويختلف السابقون فى مدرسة الاعتزال عن المتأخرين منهم . فيها . ويتعقد التصور الذهنى للمسلم العادى : عن الله سبحانه وتعالى .. ويتشعب المسلمون ما بين : صفاتيين .. ونفاة للصفات ، وأصحاب توحد .

.. وتتصل بفكرة واجب الوجود فى الفلسفة الإغريقية : فكرة العقول العشرة .. من العقل الفعال .. إلى العقل المباشر لتدبير الإنسان ، وهو عقل القمر ، وتقبل هذه الفكرة من الفلاسفة المسلمين المشائيين ، ويحاولون أن يلائموا بينها وبين ما جاء فى القرآن عن خصائص الملائكة من أنهم مقربون إلى الله ، كما جاء فى قوله تعالى :

« لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكونَ عَبْداً للهِ ، ولا الملائكةُ المقربونَ » (١) ..

---

(١) النساء ١٧٢

وشرحا لهذا القرب من الله — وتوفيقا بين الفلسفة والدين — يجعلون الملائكة عقولا خالصة ، أى جواهر لا تتصل بالمادة ، إلا اتصال تدبير • ويدرجون هذه العقول فى تنازلها من العقل الأول ، وهو الله • إلى العقل الفعال الذى يناط به التسجيل لأعمال الإنسان • فالله عقل .. وكل ملك عقل بعده . كما يدرج أصحاب فكرة الإشراق الأنوار فى وجودها عن نور الأنوار بعد أن يطلقوها على الله والملائكة معا •

.. وأصبح بعد هذا التوفيق بين ما وفد من المشرق ، والمغرب .. وبين ما جاء فى الإسلام : ثلاث صيغ أمام المسلم . تعبر عن مدلول دينى واحد ، وهى :

اولا : الله الخالق .. والملائكة ، كما يعبر القرآن .

ثانيا العقل الأول ، وهو الله واجب الوجود .. والعقول الفعالة ، وهى الملائكة ، كما تعبر الفلسفة الإغريقية والقرآن ، بعد التوفيق •

ثالثا : نور الأنوار ، وهو الله . . والأنوار الصادرة عنه وهى الملائكة ، كما تعبر فلسفة الاشراق والقرآن ، بعد التوفيق •

.. وأصبحنا نقرأ فى الثقافة الإسلامية : الله سبحانه .. وواجب الوجود .. والعقل الأول .. والعلة الأولى ، من جانب ،

.. الملائكة .. والجواهر الفردة .. والعقول النورانية من جانب آخر . والقرآن لم يرد بواجب الوجود ولا بالعلة الأولى .. كما لم يرد بالجواهر الفردة والعقول النورانية . والمسلم التقليدى فى معرفته يرتبط بهذه المصطلحات الدخيلة ، أكثر مما يرتبط بتعبير القرآن الكريم .

ولم يكن لهذا التوفيق من أثر فى الصياغة والتعبير فحسب . بل كان له أثر سلبى كبير على تعقيد الفهم لما جاء فى القرآن • إذ وضع المسلمين فى متاهات جدلية عقيلة لا تنتهى إلا إلى التعقيد وعدم الخروج بحل واضح لأى مشكل .. كما أضعف من حرارة

إيمانهم بالقرآن ومن دفعهم إلى العمل به فى غير اختلاف وانشقاق . . وفى غير تبريرات عقيمة ، تحول دون كشف الواقع والسيطرة عليه .

وكتاب الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى (١) يوضح : تفاهة الفكر الدخيل .. ووثنيته .. وآثاره السيئة على الإيمان بالإسلام .

* * *

**التحديات الفكرية .. والعقائد للقرآن ، فى الحاضر :**

● كان وضع المسلمين فيما مضى ينطوى على سعة فى دائرة الإيمان بالإسلام .. وعلى عمق فى الارتباط به ، رغم الخلافات السياسية التى مزقتهم إلى مجموعات تختلف حول « الإمامة » العليا ، .. وفى وضع شروط خاصة بها تعبر عن الفجوة بين المصالح الخاصة بينهم ؛ ورغم تفرقهم إلى طوائف .. ومذاهب ، وتفاوتهم فى مدى شد الإسلام إلى ما تراه كل طائفة .. وإلى ما يصدر عنه كل مذهب من رأى .

إذ العوامل التى مهدت لوضع المسلمين اليوم فى حاضرهم كانت عوامل قاسية فى اقتلاع جذور الإيمان بالإسلام من مجتمعاتهم .. ومن محيط حياتهم .. ومن معاملاتهم .. ومن قضائهم .. ومن توجيههم .. ومن سلوكهم .

.. كان المسلمون منقسمين قبل اليوم . ولكن انقسامهم لم يصل إلى نسيان المسئولية الجماعية التى توجب التعاطف والتضامن فيما بينهم .. ولم يصل كذلك إلى اللامبالاة التى وصل إليها أمر المسلمين اليوم فى صلات مجتمعاتهم : بعضها ببعض .

.. لم يكتف الإستعمار الأجنبى فى الحاضر بوضع فواصل غير طبيعية ، عندما قسم المسلمين إلى مجتمعات . ودول .. وسلطنات . بل وضع الأساس فى التقسيم : الإمكانيات الاقتصادية ، والبشرية التى يريد أن يستنزفها فى شره ، وفى غير اعتبار بشرى لما يستخدمه

---

(١) المؤلف

منها فى أرض المسلمين وبلادهم .. كما راعى فى هذا التقسيم : الإتفاق والتراضى بين المستعمرين العديدين على توزيع هذه الإمكانيات بينهم ، كما اتفقوا جميعا — على تعددهم — على أسلوب العمل لاستغلال هذه الإمكانيات .. إلى أقصى مستوى فيها . وهو إضعاف الإيمان بالإسلام بين المسلمين ، بإبعادهم عن رؤية إيجابية فى الحياة البشرية : إنْ بالسعى والعمل الجدى .. وإنْ بالترابط والتضامن فيما بينهم فى السراء ، والضراء .

**تحديات الفكر العلمانى :**

● وكان فى مقدمة الخطوات فى أسلوب العمل الاستعمارى : دفع « العلمانية » فى محيط الحياة الإسلامية . والعلمانية مصطلح يقصد به : أن فى الحياة التى يعيشها الإنسان فى مجتمعه جانبين . يتميز أحدهما عن الآخر . جانب دنيوى ، وهو جانب الحياة الإقتصادية . . والسياسية .. والطبيعية ، أى التى تتصل بالطبيعة من الأرض وما فيها . . وما تحتها . . وما فوقها ، من إمكانيات ومصادر للثروة : معلومة أو مجهولة يمكن كشفها . وهذا الجانب ليست له قدسية . بل هو جانب ينطوى على دنس وشر . وهو للدولة . وجانب آخر قدسى وهو جانب الأسرة . . والوجود الإلهى على هذه الأرض ، وهو الكنيسة .

ومنطق هذا المفهوم للعلمانية يقضى بتوزيع الإنسان بين هذين الجانبين ، وإخضاعه إلى توجيهين أو إلى سلطتين مختلفتين ، لهما إلزام التوجيه عليه .

. . وهنا نشأت فى الفكر الأوربى فكرة الفصل بين الدين والدولة .. أو بين سلطة الدولة وهى السلطة الزمنية أو الدنيوية من جانب .. وسلطة الكنيسة ، وهى السلطة الدينية أو الإلهية من جانب آخر .

وبينما سلطة الدولة تناقش وتنقد .. إذا بسلطة الكنيسة لا تقبل غير الخضوع والطاعة . وهكذا : هناك دولتان ، أو سلطتان فى حياة الإنسان الأوربى فى المجتمع

الواحد : سلطة الدولة .. وسلطة الكنيسة . الدولة فيما يسمى بالحياة · المدنية وهى علاقة الناس فى المجتمع بعضهم ببعض . وحكمها هو الحكم المدنى .. أو العلمانى .. أو الدنيوى .. أو السياسى . والكنيسة فيما يسمى بالحياة الدينية ، وهى حياة الأسرة ، والعلاقات الشخصية : فى الزواج ، وفى الأبناء ، وفى الوفاة ، وصلة الإنسان بربه ومعبوده . وحكمها هو الحكم الدينى . أو الإلهى .. أو الكنسى . والحكومة الإلهية حكومة معصومة عن الخطأ . وقول البابا لا يرد . لأن الإله الذى حل فى الكنيسة .. يحل بدوره فيمن يوجه سلطتها العليا ، وهو البابا .

وقد قامت العلمانية بدور أساسى فى إضعاف السلوك الدينى فى المجتمعات الأوربية . وعلى وجه خاص عن طريق التربية والثقافة . ولولا يقظة الكنيسة فى المحافظة على سلطتها وأداء رسالتها فى اختصاصها : لتحولت المجتمعات الأوربية جميعها اليوم إلى مجتمعات إلحادية .

.. هذا النمط من التفكير العلمانى أقحم نفسه مع سلطة الإستعمار الأوربى فى المجتمعات الإسلامية . وتسرب إلى التعليم .. والقضاء .. والتشريع .. وأوجد له من بين المسلمين دعاة يبشرون به ، بجانب سلطة أصحاب النفوذ الاستعمارى ، وفى خدمتهم . وأخذت الحياة فى المجتمع الإسلامى تتشعب إلى : تعليم دينى .. وتعليم مدنى .. وإلى سلطة قضائية شرعية .. وأخرى مدنية .. وإلى تشريع شرعى فى الأحوال الشخصية .. وآخر مدنى فى المسائل المدنية ، والجنائية ، والدستورية ، والعلاقات الدولية .

واشتد سند التفكير العلمانى فى المجتمعات الإسلامية ، وطغى بذلك ما يسمى بالجانب المدنى على الجانب الإسلامى . وانتهى الأمر فى عهود الحكم الوطنى بعد استقلال المجتمعات السياسية إلى إلغاء القضاء الشرعى .. والتضييق على فقه الأحوال الشخصية .. ومحاولة مساواة المرأة بالرجل فى الميراث ، إسهاما فيما يسمى : « حركة تحرير المرأة » التى تعد ظاهرة بارزة فى النصف الثانى من القرن العشرين ، كما اشتد النقد لمبادىء الإسلام . فى وسائل الاعلام المختلفة ، وفى الكتب .. والدوريات .

وأصبح الفصل بين الدين الذى هو الإسلام .. والدولة فى أى مجتمع إسلامى : حقيقه قائمة . بحجة أن مجال الدين ، وهو الإسلام ، يختلف عن مجال الدولة . وأصبح شعار : الدين لله . . والوطن للجميع : شعاراً سائداً فى المجتمعات الإسلامية ، بالأخص بعد استقلالها سياسيا مما يسمى بالاستعمار الأوربى .

فهل الإسلام يرى فى حياة الإنسان مجالين لسلطتين مختلفتين ؟

وهـــل الإسلام يرى دنس المادة وشرها حتى يمكن لهيئة غير دينية تتولى شئونها ؟ .

وهل الإسلام يرى فى المجتمع البشرى حكومة إلٰهية معصومة عن الخطأ ، تجب لها الطاعة والاستسلام فى غير شورى ، وفى غير إبداء رأى ؟ .

وهل كانت قيادة المجتمع على عهد الرسول عليه السلام بعيدة عن أىّ خطأ ؟ ولماذا كان عتاب الله لرسوله فيما اتجه إليه فى شأن أسرى بدر ، فى قول الله تعالى : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » [1] ؟ .

إن فكرة العلمانية تواجه إذن الإسلام فى مجتمعه ، وتحمله على قبول ما قبلت به الكنيسة فى المجتمع الأوربى . والعلمانيون فى المجتمعات الإسلامية يفرضون عليها قبولها فى التخطيط والتطبيق . والساسة فى المجتمعات الإسلامية يحاولون أن لا يسمعوا كلمة : الإسلام ، فى شأن نظام حكم هذه المجتمعات .

والإسلام بمواجهة العلمانية له .. وبدفعها إياه على هذا النحو : يتخلف رويداً .. رويداً عن الظهور فى مجتمعاته ، وبين شعوبه . إذن لا بد أن يكون هناك توضيح

(١) الأنفال ٦٧/٥٨

إسلامى لوضع الإسلام فى حياة المسلم — وفى نظرته لطبيعة الانسان .. وفى تقديره للمادة .. وفى مدى توجيهه فى تنسيق مع طبيعته الانسانية ، وفى ملاءمة مع متع الحياة المادية . لابد من توضيح إسلامى [1] لهذا .. ولغيرة ، يأخذ طابع الدفاع ، ولون علم الكلام الإسلامى . وعندئذ يكون مثل هذا التوضيح امتداداً لعلم الكلام عند ما واجه تفكير الغرب والشرق فى دينه .. وفلسفته .

● تحديات الفكر الاستشراقى :

وثمة رافد آخر من الفكر الدخيل فى حاضر المجتمعات الاسلامية ، يساعد العلمانية على يسر القبول ، والتمكن فى توجيه المسلمين . وهو تحد آخر للإسلام. وهذا الرافد الآخر هو الفكر الاستشراقى. أى اتجاه المستشرقين فى بحث التراث الإسلامى والمبادىء الإسلامية . وهو فكر عمل الاستعمار على قيامه .. ونشره .. وتوطينه فى البلاد الإسلامية . نعم قد تكون هناك بحوث للمستشرقين تستحق الاهتمام والإعجاب . ولكنها قليلة بالنسبة لبحوثهم الأخرى التى تستهدف تشكيك المسلمين فى دينهم، وتحاول أن تخلخل الصلة بين المسلمين وإسلامهم .

.. هى بحوث يدعى فيها : التجرد فى البحث ، وسلوك المنهج العلمى فيها . ولكن معظمها تكرار لاتهامات الماديين المشركين على عهد القرآن :

.. فيدّعون مثلا : أن القرآن ليس وحيا من الله . وأن الرسول عليه السلام ألفه . وقد أثار مشركوا مكة هذا الإدعاء ، فيما يحكيه الله سبحانه وتعالى : «أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ؟ بَل لاَّ يُؤْمِنونَ . فليأتُوا بحديث مِثْلِهِ إنْ كانوا صَادِقِين» (٢) ..

---

(١) من الكتب التى تعالج هذا الموضوع : المؤلف : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى . ورسالة : العلمانية والإسلام : بين الفكر والتطبيق .

(٢) الطور : ٣٣/٣٤

وقد نقل عنهم هـذا الإدعاء كتاب الشعر الجاهلى فيما يرويه من أن الرسول صلوات الله عليه : عاش فى فترة مزدهرة من الحضارة الإنسانية فى شبه الجزيرة العربية ، وهى حضارة سياسية ، واقتصادية ، وتأثر بها ، وكان القرآن تعبيراً عما تأثر به منها .

. . ويدّعون أيضاً : أن الرسول عليه الصلاة والسلام نقل ما فى قرآنه عن أهل الكتاب ، على نحو ما ادعى المشركون الماديون فى مواجهته ﷺ ، فيما يقصه قول الله تعالى : « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يقولونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ (أى يحيدون ويعدلون عنه) إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِى مُبِينٌ »(١) .. وقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افتراهُ ، وَأعانه عليه قَوْمٌ آخَرُونَ ، فقد جَاءوا ظُلْماً وَزُوراً »(٢) .. وقوله : « أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى ، وقد جَاءهم رسولٌ مبين . ثُمَّ تَوَلَّوْا عنه ، وَقَالُوا : مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ » .

وكما اتهمه هؤلاء المكيون الماديون : بأنه — عليه السلام — فى تعلمه من الآخرين لم يكن طبيعياً فى تفكيره . . بل كان مجنوناً وغير مستقر ذهنياً : فيما يستمع ، ويتعلم .. كذلك عندما ينسب المستشرقون إليه ﷺ : أنه تعلم من أهل الكتاب : يقولون أيضاً : إنه أساء استخدام ما تلقنه . . ولم يستطع أن يستوعبه بعقله . . وبالتالى كان مشوشاً فى التعبير عنه فى قرآنه . ويضربون المثل على ذلك بمسألتين اختلف فيهما القرآن عن مسيحية الكنيسة :

**المسألة الأولى** : مسألة التثليث . . والوحدة فى الألوهية . فيقولون : إن محمداً لم يستطع فهم التثليث ، ولذا قاومه وندد به . . ودعا إلى وحدة الألوهية ، على نحو ما يقول الله تعالى : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ، وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلا إِلَٰه

---

(١) النحل ١٠٣ . (٢) الفرقان ٤ .

(٣) الدخان ١٣/١٤ :

واحــدٌ ، وَإن لم يَنْتَهُوا عمَا يقــولون لَيَمَسَّنَّ الذينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عذابٌ أليمٌ »(١) .

**المسألة الثانية :** ألوهية المسيح . فيدّعون كذلك : أنه ( أى محمداً عليه السلام) لم يرق إلى مستوى الرسالة ، وإلى مستوى المسيح . ولذا لم يفهم ألوهيته . فبقاؤه فى المستوى البشرى حال دون تقبله الوضع الصحيح لعيسى . وقد ظهر غضبه على تأليه المسيح فيما يعبر عنه قرآنه فى قول الله تعــالى : « لَقَدْ كَفَرَ الذينَ قَالوا : إنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ »(٢) . . ثم فى قوله : « مَا المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ إلاَّ رَسُولٌ قَد خَلَتْ مِنْ قَبلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقةٌ كانَا يأكلانِ الطَّعَامَ ، انظرْ : كيفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآياتِ ، ثُمَّ انظرْ : أنَّى يُؤْفَكُونَ »(٣).

اختــلاف القرآن عن مسيحية الكنيسة فى هاتين المسألتين — وفى غيرهما — لم يكن لعامل إنسانى لدى الرسول عليه الســلام . . أى لم يكن لقصور أو تشويش فى تفــكيره ، كما يدعى هؤلاء المستشرقون . وإنمــا جزء رئيسى فى رسالة القرآن . يتعلق بتصحيح الأخطاء والتحريف الذى وجد عند بنى إسرائيل : من يهود ومسيحيين ، على السواء . ويشير إلى رسالة القرآن من أجل هــذا التصحيح قول الله تعــالى : « إنَّ هَذَا القرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِى إسرائيلَ أكثرَ الذى هُمْ فيهِ يَخْتَلِفونَ ، وَإنَّه لَهُدًى ورحمةٌ للمؤمنينَ ، إنَّ ربَّكَ يَقْضِى بينهُمْ بِحُكمه وَهوَ العزيزُ العــليمُ . فتوكلْ على اللهِ ، إنَّكَ على الحَقِّ المبينِ(٤). كما يشير القرآن إلى أخطاء التحريف للكتاب الذى جاء به موسى من جانب بنى إسرائيل فى قول الله تعالى : « وَمَاقَدَرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ ( والخطاب هناللمــكيين الماديين) إذ قالوا ماأنزَلَ اللهُ عَلى بَشَرٍ من شىء قُلْ :

---

(١) المائدة ٧٣ . (٢) المائدة ٧٢

(٣) المائدة ٧٥ . (٤) النمل ٧٦-٧٩ .

مَنْ أنْزَلَ الكتاب الذى جاء بِهِ مُوسَى : نُوراً ، وهُدى للناس ؟ تَجْعَلونه قراطيسَ تبْدونها وتُخْفُونَ كثيراً[1] ( والخطاب الآن لبنى إسرائيل . أى أن كتاب موسى لم يبق — كما كان — نوراً وهدى للناس ، بسبب إظهار بعضه وإخفاء الكثير منه . ولذا كان هنا مكان لرسالة القرآن ، التى هى تصديق لكتاب موسى فى أصله ) » . . والآية إذ جاءت الآن لتأنيب الماديين المكيين على اتهامهم الفج ، فإنها أيضا فى الوقت نفسه أبرزت السبب فى نزول القرآن ، بعد التوراة ، وهو تحريفها الذى باشره علماء بنى إسرائيل .

.. ثم يتلقف المستشرقون — زيادة على تكرارهم لتهم الماديين المكيين بالنسبة للقرآن .. أو بالنسبة للرسول عليه السلام — أخطاء فى أفهام بعض المسلمين للقرآن .. أو يحاولون هم استنتاج ما يبعد استنتاجه من ظواهر الآيات القرآنية .

.. فيتلقفون مسألة : « النسخ » فى القرآن مثلا . ويدّعون أن القرآن مضطرب فيما يقوله ، لأن محمداً يقع تحت تأثيرات مختلفة ومتضاربة . ويذكرون كثيراً من الأمثلة التى يوردها هذا البعض من علماء المسلمين للاستشهاد على نسخ القرآن : بعضه لبعض .

ولو عرف هذا البعض من العلماء — وكذلك لو أخلص المستشرقون فى نواياهم فى عرض الإسلام — أن القسم المدنى من القرآن نزل منجما ، حسب تطور مجتمع المدينة وظهور مشاكله واحتياجاته : لأدركوا جميعا : أن تكوين المجتمع لا يتم نقله من وضع.. إلى آخر على النقيض منه : دفعة واحدة .. وأن التطور النفسى عامل رئيسى فى تماسكه وفى بقاء أفراده فى نطاق هدفه المعين . والتطور النفسى لا يقبل الفجأة .. ولا يلتئم مع التحديات النهائية فى أول طريق التكوين . وجاء التعبير عن نزول القرآن منجما فى قول الله تعالى : « وَقَالَ الذينَ : كَفَرُوا : لَوْلاَ نُزِّلَ عليهِ القرآنُ جملةً واحدةً ، كذلِكَ : لِنُثَبِّتَ بِهِ فؤادَكَ ، ورتَّلْنَاه تَرتيلًا » (٢) :

---

(١) الانعام ٩١ (٢) الفرقان ٣٢

وكذلك لو عرف هذا البعض : أن النسخ ليس فى رسالة أى رسول . وإنما هو بين رسالات الرسل ، ككل . كالذى وقع بين رسالة إبراهيم .. وموسى .. ومحمد،عليهم السلام فى حل العمل يوم السبت ، وفى تحريمه . على نحو ما يصوره القرآن فى قول الله تعالى .« ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ : أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ( أى إنما حرم العمل يوم السبت على بنى إسرائيل لأنهم هم الذين عصوا الله فيما أمرهم به فى قوله : « وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ، وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً ، وَقُلْنَا لَهُمْ : لَا تَعْدُوا فِى السَّبْتِ »(1) (أى لا تتجاوزوا الأمر فى شأنه ، وهو عدم العمل فيه ) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »(2) .. فأمر الرسول محمد عليه السلام باتباع إبراهيم — دون موسى — فى حل العمل يوم السبت . وإذن ما جاء فى القرآن هو نسخ : لما جاء فى التوراة فى هذا الشأن ، وعودة بالبشرية إلى ما كان عليه إبراهيم .

ولذا كان من أسباب رفض القرآن من جانب بنى إسرائيل هو نسخه لبعض ما جاء فى التوراة . ويشير إلى ذلك قول الله تعالى : « وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ( أى أتينا فى القرآن بآية تدل على حكم .. بدل آية فى التوراة تدل على حكم مغاير له ) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ، قَالُوا ( أى قال ذلك أهل الكتاب من بنى إسرائيل ، لأنهم هم الذين لهم كتاب منزل ينطوى على آيات الأحكام ، وليس المشركون المكيون ): إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ : نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ »(3) ..

.. ويحاولون إبراز ما يسمى بالتضارب فيما يريده القرآن ، أو فيما يأمر به وينهى عنه ويعرضون للجبر .. والاختيار ، ويذكرون الآيات التى يؤخذ من ظاهرها : وجود الجبر وعدم المشيئة ، بالنسبة للهداية على الأخص .. والآيات الأخرى التى تترك أمر الكفر

(1) النساء ١٤٤ (2) النحل ١٢٤

(3) النحل ١٠١/١٠٢

والهداية إلى الإنسان . ويشيرون إلى مذهب الجبريين .. وإلى المذهب الآخر ، وهو مذهب المعتزلة فى اختيار الإنسان . ولكنهم لا يشيرون إطلاقا إلى الدوافع السياسية فى أمور الخلافة الإسلامية التى دفعت إلى إعلان مذهب الجبر فى عهد الأمويين .. وإلى مذهب الإختيار على أيام حكم العباسيين . والسياسة فى استخدامها الدين لاتتركه وحده يقول ما يريده . وإنما تحمله — على يد نفر ممن ينتسبون إليه — على قول معين . هو القول الذى تحتاجه السياسة فى وجه خصومها فى الحكم ، تأييداً لاتجاهها فيه . ولكنهم يبتغون الفتنة .. ويبتغون تأويله . كما صنع أسلافهم من أهل الكتاب ذلك ، وحكاه الله فى قوله تعالى: « هُوَ الذى أَنْزَلَ عليكَ الكتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتابِ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهاتٌ ، فَأَمَّا الذينَ فى قُلوبِهِمْ زَيْغٌ فيتبعونَ ما تَشَابَهَ منهُ : ابتغاء الفِتْنَةِ وابتغاء تأويلِهِ ، وَمَا يعلَمُ تأويلَهُ إلاَّ اللهُ،والراسِخونَ فى العِلْمِ يقولونَ : آمنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ ربنا ، وما يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولوا الألبابِ » (١).

ولو اتضح لهؤلاء ولغيرهم أن الجانب النفسى فى القرآن بالنسبة للرسول عليه السلام كان عنصراً هاما فى نجاح الدعوة به : لترددوا كثيراً فيما يتهمونه به . فعندما يقول الله لرسوله الكريم صلوات الله عليه : « إنكَ لاتهدِى من أحببْتَ ، ولكنَّ اللهَ يهدِى من يَشَاء ، وهُوَ أعْلَمُ بالمهتَدِينَ » (٢) .. يقول له ذلك — ناسبا الهداية إلى الله وحده — ليطمئنه نفسيا بأن عليه — صلى الله عليه وسلم — فقط : مباشرة الدعوة بين أقربائه ، ولكنه لا يتحمل نتائجها عنهم. فسبحانه هو الذى يقول له كذلك فى هذا الشأن : « ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون » (٣) .. دفعا لما قد يجول بنفسه من خواطر الأسف ، بسبب عدم نجاح دعوته بين أقربائه .. وتشجيعا له على السير نحو الأمام فى رسالته .

أما المسئولية الشخصية عن الإيمان ، والكفر .. وعن العمل الصالح ، والسىء ،

---

(١) آل عمران ٧ (٢) القصص ٥٦ (٣) النحل ١٢٧

فهى حقيقة بارزة فى القرآن . لأنها قائمة على الحرية الكاملة فى قبول الإيمان بالإسلام ، أو فى رفضه : « وقل الحقُّ من ربِّكُمْ فمنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ،ومن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » (١)..

« مَنْ كَفَرَ فعليه كُفْره ، وَمنَ عملَ صَالِحا فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » (٢) .. ولا يمكن أن يكون الإنسان مسئولا عن كفره إلا إذا كان ذا مشيئة فيه .

وآيات القرآن التى تظهر نسبة الإيمان والكفر إلى الله تستهدف هدفين :

**الهدف الأول** : أن مشيئة الله تعين الإنسان على الهداية ، إذا أقبل عليها أو عندما يقبل عليها ، ولا تعينه عليها إذا أعرض عنها : « فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يشرحْ صَدْرَهُ للإسلامِ ، ومن يُرِدْ أن يضلَّه يَجْعَلْ صدْرَه ضَيِّقا حَرَجا كأنما يَصَّعَّدُ فى السماء، كذلك يجعل الله الرجْسَ على الذينَ لايُؤْمنونَ »(٣).

**الهدف الثانى** : إحاطة الداعى والدعوة بجو النجاح وعدم الخذلان . وذلك بإبعاد: أن يكون الإيمان .. أو عدم الإيمان من مستتبعات النشاط فى الدعوة والداعى إليها . وهنا ليس على الداعى إلا أن يقوم بواجبه فى شرح الدعوة ، دون انتظار لما تسفرعنها نتائجها . ويكل النتيجة لله وحده ، ويعتمد عليه فى النجاح أخيرا : « فَلِذَلِكَ فادْعُ واستقِمْ كَمَا أُمِرتَ ، وَلاتَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وقل : آمنتُ بما أنزلَ اللهُ من كتابٍ ، وأمرتُ لأعدلَ بينكُمْ ، الله ربُّنَا وربكم ، لنا أعمالُنَا ولكم أعمالُكُمْ ، لا حجة بيننَا وبينَكم ، اللهُ يجْمَعُ بيننا ، وإليه المصير »(٤)..

.. كما يتلقف هؤلاء المستشرقون ما قد يوجد فى بعض كتب المتأخرين فى الفقه من استنتاجات افتراضية ، ربما لا تقع فى الحياة العملية للإنسان. ولكن يفترض الفقيه — وهو منعزل عن أحداث الحياة .. ومستغرق فى خيال التصور — وقوعها ، ويدخلها فى دائرة استنتاج الأحكام الفقهية . كما تذكر بعض كتب الفقه مثلا : الأحكام التى تترتب على

---

(١) الكهف ٢٩ (٢) الروم ٤٤

(٣) الأنعام ١٢٥ (٤) الشورى ١٥

زواج إنس بجنّية . . أو زواج جنّ بأنسية : فى الطلاق . . وفى الميراث . . وفى النسب ومستقبل الأولاد . وكما تذكر هذه الكتب أيضا : الحكم الشرعى : من بطلان .. أو كراهية ، فى خطيب يصعد المنبر يوم الجمعة .. أو يؤم المصلين فى صلاتها ، وهو يحمل قربة من الفساء ...

وفى سرد هؤلاء المستشرقين لمثل هذه الأحكام الإفتراضية فى الفقه يقدرون : أن يشيروا إلى الإنعزالية أو البعد فى أحكام الفقه الإسلامى عن واقع الحياة .. أو عن مدى إهماله فى معالجة القضايا والمشاكل التى تعترض حياة المسلمين فى اختلاطهم بحضارات أخرى .. وفى عهود يتقدم فيها العلم والتطبيق الصناعى ، ويصل فيها الإنسان إلى مستوى السيطرة على الأجواء ، بعد أن سيطر على الأرض والبحار .. يقصدون : إما إلى إبراز جمود الفكر الإسلامى أو تخلفه ..أو عدم صلاحية الشريعة الإسلامية لدفع المسلمين نحو التطور .. والخروج من الركود الذى يعيشون فيه .

وفى جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية كان يقوم فى العشر سنوات الأخيرة أستاذ بريطانى — وهو من كبار المستشرقين . . وأكثرهم اعتدالا ، وهو الأستاذ : جب — بتدريس هذا النوع من الفقه الإفتراضى ، بدعوة من الجامعة ، وعلى نفقة اعتماد مالى كبير لتدريس حضارة الشرق الأدنى وحركاته الإسلامية المعاصرة ، للطلاب الأمريكين . . والوافدين من أنحاء العالم .

ومثل هذا العمل للمستشرقين هو تحد آخر للإسلام فى وقتنا المعاصر ، يجب أن يواجه بتتبع وبيان مافيه من فساد . . ومغالطة . . وخلط .. وتشويش . على نحو ماصنع المرحوم الإمام محمد عبده فى رده على المستشرق الفرنسى : « رينان » فى كتابه : « الإسلام والنصرانية » (١) . ومن الأسف أن عمل هؤلاء المستشرقين تعدد .. وتنوع .. واتسع إلى درجة أنه يصعب على القلة المفكرة من علماء المسلمين أن تواجهه . ثم فى

(١) وعلى نحو ما جاء فى تفنيد ادعاءات المستشرقين فى كتاب : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى .

الوقت نفسه له أثر سلبي .. ونافذ .. ومستمر ، على المثقفين المسلمين ، لأن تنظيمهم لبعض المراجع الإسلامية ، ومنهجهم فى التبويب ، والترتيب ، للفكر ، أو للكتب : من شأنه أن ييسر الرجوع إلى المفاهيم الإسلامية ، وإن كانت تنطوى على تحريف ، أو إساءة متعمدة فى شرحها . فدائرة المعارف الإسلامية — مع ما فيها من أغلاط وتحريف متعمد — تدفع إلى من يبحث عن بعض المراجع الإسلامية المعاصرة .. إلى الرجوع إليها. وقلما ـ من تعود الرجوع إليها ـ يكون على علم بالمفاهيم الإسلامية من مصادرها ، وبالأخص من القرآن الكريم .

**تحديات الفكر الطبيعى :**

● وبجانب ما وفد من الغرب إلى المجتمعات الإسلامية فى ظل الاستعمار من تحديات العلمانية .. والاستشراق : وفد أيضا إلى هذه المجتمعات تحديات الفكر الطبيعى . وهو الفكر الذى يرى علل الأشياء فى ذواتها .. ويخضع أحداثها إلى استتباع الأسباب الطبيعية لمسبباتها . والفكر الطبيعى يعترف بالتجربة المادية وحدها كوسيلة للعلم . ومن أجل ذلك ينكر أى مصدر آخر له ، كغيب السماء وما يأتى به الوحى منه .

.. وهنا وجد تحدى : ما يسمى بمشكلة العلم والدين . فحسب مقياس العلم فى اتجاه الفكر الطبيعى يعتبر الدين أسطورة .. أو خرافة غيبية . أى لا يعتمد فيما يقول على تجربة الحس ، ولا على وسائل الإختبار العلمية ، والملاحظة لمرور التجربة فى مراحلها العديدة . وفعلا يتحدث الطبيعيون عن نوعين من العلم : أحدهما تجربى ، وهو العلم الطبيعى وهذا هو النوع المقبول . وثانيهما غيبى ، وهو الدين . وهو لا يعتد به ، كما لا يعتمد عليه فى بناء المجتمع وسلوكه . وإذن يردد الطبيعيون ما كان يردده المشركون الماديون على عهد الرسالة ، على الرسالة ، على نحو ما يقص قول الله تعالى : « وَمِنْهُمْ من يستَمِعُ إِلَيْكَ ، وجعلنا على قلوبهم أكِنَّةً أن يفقَهُوه ، وفى آذانهم وَقْراً ، وَإِنْ يَرَوا

كلَّ آيةٍ لا يؤمِنُوا بهَا ، حتى إذا جَاءوكَ يجادِلُونكَ يقولُ الذينَ كَفَرُوا : إنْ هذا إلاَّ أسَاطِيرُ الأوّلينَ » (١) ..

.. ومحمد إقبال — فى كتابه : « إعادة بناء الفكر الإسلامى » .. يرى فى قصر الطبيعيين : العلم ، على ما تأتى به نتائج التجربة المادية وحدها .. أى على ما يأتى به الحس وحده : نوعا من القصور فى تحديد وسائل العلم .. أو نوعا من التحيز فى اختيار الحس وحده ، كوسيلة يؤخذ بها و يعتمد عليها . فما يأتى به الدين كذلك من علم ، فإيمان به : هو تجربة كذلك . ولكنها تجربة نفسية ، تخضع للمارسة الداخلية للإنسان . أى تخضع لجهاد النفس وترويضها . فكلما جاهد الإنسان شهوات نفسه ووقف فى سبيل هواها : كلما زاد إدراكه وضوحا وعمقا للطريق السوى فى الحياة .. وكلما زاد إيمانه قوة بالله وبرسالته. ونهاية هذه التجربة النفسية تتجلى فى الصفاء النفسى .. وفى الإلهام البعيد عن التأثر بمتع الحياة .. يتجلى فى مستوى معين من الزهد أو التصوف .. وهو مستوى التجرد فى الحكم ، والغنى النفسى بالقناعة عن ماديات الحياة .

والرؤية العلمية التى يراها صاحب هذه التجربة أدخل إذن فى معنى : العلم و اليقين . لأن تجربة الحس لا تمر وحدها إلى نتائجها . وإنما تصحب هذه التجربة ملاحظة الملاحظ لها .. أى ملاحظة إنسان يرقبها ويتتبع خطواتها . وهذا الإنسان فى مراقبته إياها خاضع للغفلة .. وللتأثر بالجو الذى هو فيه .. وللتقلب فى المزاج والصحة إلى حال .. ونقيضه ، أثناء قيامه بالملاحظة . والأخطاء العلمية هى أخطاء : إما فى ذات التجربة .. أو فى ملاحظتها من الإنسان . والتطور العلمى ما هو إلا طريق يقوم على تصحيح الأخطاء التى تقع فى التجارب المادية أو الحسية ، والتوصل إلى نتائج جديدة قد تعدل غداً ، أيضـا . ومع ذلك لا يتلافى التطور العلمى جميع الأخطاء . ويستحيل عليه أن

---

(١) الأنعام ٢٥

يتلافاها . لأنها من الإنسان المعرض للشيء ٠٠ ونقيضه : فى حياته ، وفى ممارسته للمراقبة والملاحظة .

والتطور العلمى ينطوى فى ذاته على اعتراف بعدم تكامل العلم ٠٠ أو بعدم وصوله إلى اليقين النهائى .

« وإقبال » فى توضيحه للتجربة الدينية — كوسيلة أخرى بجانب التجربة المادية — أخذ من الفيلسوف الألمانى : « هيجل » ٠٠ طريقه فى الوصول إلى وحدة الألوهية ٠٠ وكيفية وجود العالم عنه ٠٠ واتصاله به .. وهو طريق الدعوة .. ومقابل الدعوة..والجامع بين الدعوة ومقابل الدعوة . أو هو طريق استخدام النقيض فى مجال « الفكرة » . وقد استخدمه « كارل ماركس » فيما بعد : فى مجال المادة أو الإقتصاد ، ليصل منه إلى سيادة البروليتاريا فى حكومة عالمية .

.. وفى الوقت الذى ينكر فيه الطبيعيون القيمة العلمية للدين — لأنه كما يقولون : علم — غيبى ، وليس بحسى — يجعلون علم الإجتماع فى مقدمة العلوم اليقينية . والمجتمع الذى يبحث ، وتحدد قوانينه ، وتوصف بأنها قوانين علمية ، ويتكون منها ما يسمى بعلم الإجتماع : ليس تجربة مادية خالصة . لأن الإنسان الفرد فى المجتمع ، والذى تقع عليه التجربة فى علاقته بغيره ، والذى قال فيه هؤلاء الطبيعيون : إنه وحدة مادية فى ظاهره وباطنه . هذا الإنسان ليس : « موضوعا » للفعل والانفعال فحسب .. أى ليس موضوعا قابلا فقط ، وليست له فاعلية ٠ بل هو وحدة تتفاعل مع عالمها الذى توجد فيه . فهى كما تقبل الفعل من الغير .. تعطى الفعل للغير . وهذا معناه : أن المجتمع لايساوق أية كتلة مادية فى الطبيعة ، تلاحظ عليها التجربة .. وتقنن المراحل التى تمر بها هذه التجربة . لأن الكتل المادية الأخرى : كتل ميتة . والإنسان إن كان كتلة من المادة ،ففيه الحياة. والحياة فى الإنسان هى حركة تَصْدُر .. وحركة أخرى تَسْتَقْبِلُ .

وأصحاب الإتجاه الطبيعى إذن ليسوا أصحاب تجرد فى الحكم . بل حزبية النعرة

من الدين ، والرغبة فى التخلص من سلطة الـكنيسة : حملاها على الفصل بين العلم .. والدين . كما حملا رجال السياسة على الفصل : بين الدين .. والدولة .

والاتجاه الطبيعى فى التفـكير هو من التحديات المعاصرة التى لم تلق الآن اهتماما فى الفـكر الإسلامى المعاصر (١) من أجل توضيح الإسلام ومبادئه على أساس الوحى الإلـهى به . ومحاولة إقبال فى توضيح أن الدين تجربة علمية من نوع آخر ، رغم أنها محاولة ناجحة إلا أنها تقصر عن أن تواجه هذا السيل من تفكير الطبيعيين ، لإبعاد الإسلام عن التوجيه ، وبالأخص عن توجيه الشباب المسلم المعاصر .

**تحديات الفكر المادى التاريخى :**

● والفكر المادى التاريخى هو الفكر الذى يجعل كل ظواهر الوجود — وبالأخص تطورات المجتمع البشرى — من المادة . أى من الإقتصاد وحده . فالإقتصاد هو العامل الوحيد المحرك للوجود .. وهو صاحب الخالقية والفعل فى تغيير المجتمعات الإنسانية . والمجتمعات الإنسانية ذاتها مرآة تعكس آثار الأوضاع الإقتصادية فيها . والمجتمعات الإنسانية بدورها ذات التأثير على الفرد : فى ذاته .. وفى علاقته بالآخرين .

ويلتمس هذا الفكر من بعض أحداث التاريخ الشواهد على ما يدعى . ويستعين بفكرة النقيض عند هيجل : على توضيح تحول المجتمع من وضع معين .. إلى وضع آخر مقابل له . كتحول المجتمع من وضع الإقطاع فى الأراضى والعبيد .. إلى وضع نظام رأس المال فى الصناعة .. ثم إلى وضع البروليتاريا فى الشيوعية الدولية .

ويقوم هذا الفكر على أساس الإلحاد العلمى ، والعداوة التى لا تقبل المهادنة للدين . وقد عرف هذا الاتجاه فى القرن التاسع عشر باسم « السوشيالزم » ، أو الاشتراكية . ثم عرف بعد ذلك باسم الاتجاه الماركسى ، نسبة لليهودى : كارل ماركس فى القرن التاسع

(١) كتاب الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار . فرق محاولة د. كرية أخرى وهذه التحدى الطبيعى للاسلام .

عشر . وفى تطبيقه بعد ثورة اكتوبر الحمراء فى روسيا سنة ١٩١٧ عرف باسم الاتجاه — اللينينى . ويعرف فى بعض المجتمعات الإسلامية بأسماء أخرى كالاشتراكية العربية .. أو الناصرية ، أو اليسار العربى ، تستراً على ما يدعو إليه من تقويض الدين باسم الإلحاد العلمى .

ويعيد هذا الاتجاه فى موقفه من اتهام الدين : ما كان يتهم به القدامى من الماديين — كمشركى مكة — الإسلام : من أنه : كهانة .. وأسطورة .. وأضغاث أحلام .. وسحر .

فيحكى القرآن الكريم قول هؤلاء القدامى بشأن القرآن :

.. « وقالوا : أسَاطِير الأولينَ اكْتَتَبَهَا » .

.. « بَلْ قالوا : أَضْغاثُ أحلامٍ » .

.. « وَلَئِنْ قلتَ : إنكُمْ مبعوثُونَ مِنْ بعدِ الموتِ ليقولَنَّ الذين كفروا : إنْ هَذَا إلاَّ سِحْرٌ مبين » .

.. ونفى القرآن دعواهم إزاء الرسول عليه السلام بأنه كاهن فى قول الله تعالى: « فذَكِّرْ فَمَا أنتَ بنِعْمَةِ ربِّكَ ( وهى القرآن ) بكاهِنٍ ولا مَجْنُونٍ » .

.. ولكن هذا الاتجاه المادى التاريخى يعيد هذا الموقف فى تعبيرات أخرى . فيصف الدين مثلا : بأنه أفيون الشعوب . أى مخدر . كما يصمه بالأسطورة .. وبأنه غيبى لا يحمل طابع المعرفة الصحيحة . والقائمون على تنفيذ هذا الاتجاه فى مجتمعاتهم يصفون كل من ينقد نظام الحكم القائم عليه : بأنه مجنون ، ويحتجزونه فى أمكنه المجانين. وقد حكم المكيون على رسول الله عليه السلام بسبب دعوته إلى القرآن : بأنه مجنون :

« وقالوا : يَا أيُّهَا الذى نُزِّلَ عليه الذِّكْرُ ( أى القرآن - ويعنون محمداً عليه السلام —) : إنَّكَ لمجنونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بالملائِكَةِ ، أنْ كنتَ من الصادقِينَ » .

والقرآن كرسالة لله هو فى الدرجة الأولى : نقد لأوضاع المجتمع قبل الرسالة .. وفى الوقت نفسه : بناء لمجتمع إنسانى جديد .. بدلا من مجتمع الوثنية المادية .

.. وجمال الدين الأفغانى فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر فى رسالة : « الرد على الدهريين » : كما تكفل بالرد على أصحاب الإتجاه الطبيعى فى الفكر .. تكفل أيضا بالرد على هذا الاتجاه الماركسى[1] الذى كان معروفا إذ ذاك : بالسوشيالزم .. أو بالاشتراكية .

.. وفى رد جمال الدين الأفغانى على أصحاب هذا الاتجاه تناول ثلاث نقاط ..

الأولى : من هم الاشتراكيون . والشيوعيون ، فى الغرب ، والشرق؟ .

الثانية : ما بين : مزدك . . وماركس .

الثالثة : أوجه المشاركة فى الحديث .. والقديم .

* ففى النقطة الأولى : يقول .

« هـــذه الطوائف تتفق فى سلوك الطريقة الدهرية ( وهى : الإلتحاد بالدين . . والإيمان بالطبيعة وحدها ) . زينوا ظواهرهم بدعوى : أنهم سند الضعفاء . . والمطالبون بحقوق المساكين والفقراء .

« وكل طائفة منها ، وإن لونت وجه مقصدها بما يوهم مخالفته لمقصد الأخرى ، إلا أن غاية ما يطلبون : إنما هو رفع الإمتيازات البشرية كافة .. وإباحة الكل : للكل واشتراك الكل : فى الكل .

« وكم سفكوا من دماء . . وكم هدموا من بناء .. وكم خربوا من عمران .. وكم أثاروا من فتن .. وكم أنهروا من فساد . كل ذلك : سعيا فى الوصول إلى هذه المطالب

(١) وقد وردت فى صورة مستقلة : رسالة : تهافت الفكر المادى التاريخى ، بين النظر والتطبيق من مؤلفاتنا — على هذا الاتجاه .

الخبيثة (الإباحة .. والاشتراك) . وجميعهم على اتفاق : فى أن جميع المشتهيات الموجودة على سطح الأرض منحة من الطبيعة .. وفيض من فيوضها . والأحياء فى التمتع بها سواء. واختصاص فرد من الإنسان بشيء منها دون سائر الأفراد ( يشير إلى الملكية الخاصة ) بدعة فى شرع الطبيعة السيئة ، يجب محوها والإراحة منها[1] .

.. موقفهم من الدين .. والملكية .

ومن مزاعمهم : أن الدين .. والملك عقبتان عظيمتان ، وسدان منيعان يعترضان بين أبناء الطبيعة ، ونشر شريعتها المقدسة : (الإباحة .. والإشتراك). وليس من مانع أشد منهما . فإذن من الواجب على طلاب الحق الطبيعي : أن ينقضوا هذين الأساسين ويبيدوا الملوك .. ورؤساء الأديان . ثم يعمدون إلى الملاك ، وأهل السعة فى الرزق . فإن دانوا لشرع الطبيعة فخرجوا عن الاختصاص ( أى الملكية وتنازلوا عنها ). فتلك . . وإلا أخذ بأعناقهم قتلا ، وبأكظامهم خنقا ، حتى يعتبر بهم من يكون أمثالهم . فلا يلوون رؤسهم كبراً على الشريعة المقدسة ( وهى شريعة الطبيعة ) ولا تزور أعناقهم عصيانا لأحكامها[2] .

.. منافذ تسربهم .

« نظر أبناء هذه الطوائف فى وجوه الوسائل لبث أفكارهم . . والإفضاء بما فى أوهامهم : إلى قلوب العامة ( الجماهير ) فلم يجدوا وسيلة أنجح فى زرع بزور الفساد فى النفوس: من وسيلة التعليم : إما بإنشاء المدارس ، تحت ستار نشر المعارف ، أو بالدخول فى سلك المعلمين فى مدارس غيرهم ، ليقرروا أصولهم فى أذهان الأطفال ، وهم فى طور السذاجة : فتنتقش بها مداركهم بالتدريج .

---

(١) كتاب الرد على الدهريين: ص ٩٠ : الناشر دار الكرنك — القاهرة — عمارة رمسيس — ميدان رمسيس باب الحديد : تحقيق الشيخ محمود أبو رية .

(٢) المصدر السابق : ص : ٩١ .

« فمن أولئك الدهريين : من همه بناء المدارس ، ودعوة الناس إليها . ومنهم متفرقون في بلاد أوربا يطلبون وظائف التعليم ، وينالون من ذلك طلبهم . وجميعهم يتعاونون على إذاعة خيالاتهم الباطلة . وبهذا كثرت أحزابهم . . ونمت شيعتهم في أقطار الممالك الأوربية ، خصوصا في مملكة الروسية .

« ولا جرم : أن هذه الطوائف إذا استفحل أمرها ، وقوى ساعدها على المجاهرة بأعمالها : فقد تكون سبباً في انقراض النوع البشرى ، كما تقدم ذكره . أعاذنا الله شرور أقوالهم وأعمالهم »(١) .

.. ومن هم في الشرق ٠

« أما منكروا الألوهية ، أعنى الدهريين ( الإشتراكيين — الشيوعيين ) الذين ظهروا فى لباس المهذبين ، ولونوا ظواهرهم بصبغ المحبة الوطنية ( القومية ) وزعموا أنفسهم طلاب خير الأمة . . فصاروا بذلك شركاء اللص ، ورفقاء القافلة ، ثم تجلوا فى أعين الأغبياء : حملة لأعلام العلم والمعرفة ، وبسطوا للخيانة بساطا جديدا . وتولاهم الغرور بما حفظوا من كلمات قليلة ناقصة ، غير تامة الإفادة ، مسروقة من أوهام المبطلين وفتلوا سبالهم ، كبراً وعلوا ، ولقبوا أنفسهم بالهادين . . والأدلاء ، وهم فى أطباق جهل ، وأرثاق غباوة ، وفى أُهُبٍ من دنس الرذائل ، ومُسُوكٍ من قذر الذمائم . فأولئك قوم ، قوى فيهم الظن : بأن العقل وثمرته من المعرفة ينحصران فى تبين وجوه الغدر ، وتعرف طرق الاختلاس . وإننى لفى خجل من ذكرهم ، يدافعنى الحياء عن رواية سيرهم ، وحكاية أعمالهم . فإن مقاصدهم من الدناءة بحيث لا تخرج عن جيوبهم : يسعون فى اقتلاع أساس أمتهم لشهوة بطونهم . . يحدون شفارهم لتقطيع روابط الالتئام بين بنى جنسهم ، لا يبتغون بذلك عوضا سوى حشو معدهم . وما أضيق مجال تفكيرهم ! .

---

(١) المصدر السابق : ص : ٩٩-٩٢ .

. . إلى الآن لم يخط أحدهم خطوة خارج كرشه . . ولم يمد واحد منهم رجله لأبعد من فراشه . وليس فى وسع القلم أن يتحرك فى هذا المجال الضيق. غير أنه يمكن أن يقال إنهم : « بياجو » لغيرهم . أى سيئوا التقليد لهم »[1] .

**بين مزدك — وماركس :**

ويقول جمال الدين الأفغانى فى الصلة بين الإثنين: «انتحل مزدك لنفسه لقب : رافع الجور . . ورافع الظلم . وبنزعة من نزعاته قلع أصول السعادة من أرض الفارسيين . نسفها فى الهواء ، وبددها فى الأجواء ، فإنه بدأ تعاليمه بقوله : جميع القوانين . . والحدود والآداب ( الأخلاق ) التى وضعت بين الناس : قاضية بالجور ، مقررة للظلم . وكلها مبنى على الباطل . وإن الشريعة الدهرية المقدسة لم تنسخ حتى الآن . وقد بقيت مضمونة فى خرزها ، عند الحيوانات والبهائم .. .

« أىّ عقل ، وأىّ فهم يصل إلى سر ما شرعته ( الطبيعة ) ؟

« وأىّ إدراك يحيط بمثل ما أحاط به ، وقد جعلت الطبيعة حق: المأكل ،والمشرب، والبضاع .. مشاعاً بين الآكلين .. والشاربين .. والمباضعين ، بدون أدنى تخصيص ؟ . فما الحامل للإنسان على حرمان نفسه من بضاع : ابنته . . وأمه . . وأخته ؟ ثم تركهن لغيره يتمتع بهن : انقياداً لما يخيله له الوهم ، مما نسميه شريعة ، وأدبا ( أخلاقا ) ؟ .

« وأىّ حق يستند إليه من يدعى : ملكية خاصة فى مال يتصرف فيه دون سواه ، مع أنه شائع بينه وبين غيره ؟

«وأىّ وجه لمن يحجر على أمراة دخلت فى عقده ، ويحظر على الناس : نيلها ، وقد خلق الذكر للأنثى . . والأنثى للذكر .

« وماذا يوجد من العدل فى قانون يحكم بأن المال الشائع — إذا تناولته يد مغتصب

(١) المصدر السابق : ص : ٩١ .

بما يسمونه بيعا وشراء . . أو إرثا — يكون مختصا بذلك المغتصب ، ثم يحكم على الفقير المحروم ، إذا احتال لأخذ شىء من حقه والتمتع به : بأنه خائن .. أو غاصب ؟

« فإن كان هذا شأن تلك القوانين الجائرة ، فعلى الإنسان : أن يفك أغلالها من عنقه ، ويطرح كل قيد عقدته القوانين والشرائع . . والآداب ، التى لا واضع لها سوى العقل الإنسانى الناقص، وليرجع إلى سنة الطبيعة المقدسة، ويقضى حق شهوته من اللذائذ التى أباحتها له : بأىّ وجه من الوجوه . . ومن أية الطرق ، ويأخذ فى ذلك مأخذ البهائم . وعليه أن يقاوم الغاصبين ، المتحكمين فى الحقوق : قسرا . أى المالكين للأموال . . والأبضاع ، فيخرجهم عن سوء فعالهم من الغصب . . والجور ( أى من حق التملك ) .

« فلما ذاعت هذه النزعات الخبيثة بين الأمة الفارسية : تهتك الحياء . . وفشا الغدر والخيانة . . وغلبت الدناءة والنذالة . . واستولى حكم الصفات البهيمية على نفوسهم .. وفسدت أخلاقهم .. ورذلت ( أى وصلت إلى الخسة ) طباعهم . نعم إن « أنو شروان قتل مزدك ، وجماعة من شيعته . ولكنه لم يستطع محو هذه الأوهام الفاسدة ، بعد ما علقت بالعقول .. والتبست نفايتها بالأفكار . فكان علة فى ضعفهم ، حتى إذا هاجمهم العرب لم تكن إلا حملة واحدة فانهزموا . مع أن الروم — وهم أقران الفارسيين — ثبتوا فى مجالدة العرب ، ومقاتلتهم : أزمانا طويلة »(١) .

**أوجه المشاركة فى الحديث .. والقديم :**

ويقول جمال الدين كذلك : « وقد تبين : أن أول تعاليم « النيتشريين » أبطال هذين الاعتقادين :

« أولاً : الإعتقاد بالله ..

« وثانيا : الاعتقاد بالحياة الأبدية ( الحياة الأخروية) : وهما أساس كل دين .

---

(١) المصدر السابق : ص : ٧٧ — ٧٩ .

« فهؤلاء القوم هم الساعون فى نسف بناء الإنسانية ، وتدريته فى ذيول السافيات . يطلبون ضعضعة أركان المدنية .. وفساد الأخلاق البشرية . ويقوضون بذلك ما رفعه العلم ، وشادته المعرفة. فيهلكون الأمم بإطفاء حرارة الغيرة، وإخماد ريح الحمية ، هؤلاء جراثيم اللؤم والخيانة .. وأرومات الرذالة والدناءة .. وأحلاس الخسة والنذالة .. وأعلام الكذب والافتراء .. ودعاة الحيوانية العجماء . محبتهم كيد .. وصحبتهم صيد .. وتوددهم مكر .. ومواصلتهم غدر .. وصداقتهم خيانة .. ودعواهم للإنسانية حبالة .. ودعوتهم للعلوم شرك ومكيدة .

« يخونون الأمانة .. ولا يحفظون السر .. ويبيعون ألصق الناس بهم بأدنى مشتهياتهم .. عبيد البطون .. وأسراء الشهوات. لايستنكفون من الدنية ، إذا أعقبتها عطية . ولا يخجلون من الفضيحة ، إذا تبعتها رضيخة ( أى عطية قليلة ) . لا علم عندهم بالوقار .. ولا إحساس لهم بالعار .. ولم يبلغهم عن شرف النفس خبر مخبر .. ولا وصل إليهم عن الهمة عبارة معبر ، أو تفسير مفسر . الإبن فيهم لا يأمن أباه . والبنت لا أمان لها من كليهما » (١) .

« نعم أى حد تقف دونه حركات طبع الطبيعين ( وفى مقدمتهم : الإشتراكيون .. والشيوعيون ) .

« قد يوجد بين الناس من تغره نعومة لمس هذه الأفاعى .. وتروقه رقطة جلودها، وانتظام الرقش فيها ، فينخدع لهم بما يلتبس عليه من أمرهم ، فيصغى لزخرف قولهم ، ويظن : أن هؤلاء القوم من طلاب التمدن ( التقدم ) والأعوان على الإصلاح ، أو من الراغبين فى بث المعارف ، أو المنقبين عن الحقائق .. أو يتخيل : أن منهم من يكون عونا عند الضيق .. أو عونا فى الشدة .. أو مخزنا للأسرار عند الحاجة . فذلك المغرور بمظاهر هذه الطائفة لا محالة يبكى عليه .. ويضحك منه . فالضحك عجبا من

---

(١) المصدر السابق : ص : ١٠٣-١٠٤ .

غروره .. والبكاء حزنا على ضلاله »(١).

« .. ولما كان نظام الأكوان قد بنى على أساس الحكمة .. ونظام العالم الإنسانى جزء من النظام الكونى : ألهم الله نفوس البشر أن تفزع إلى مقاومة أولئكم المفسدين فى أى زمان ظهروا .. ومدافعة ما يعرض من شرهم، كما ألهمهم الفزع من الحيوانات المفترسة، والنفْرة من الأغذية السامة، وأنهض حفاظ النظام المدنى الحقيقى — وهو الدين — لبذل الجهد .. وإفراغ الوسع فى محو آثارهم، واستئصال مايغرسون فى تعاليمهم .

« لا جرم أن مزاج الإنسان الكبير ( يقصد عموم النوع الإنسانى ) بما أودع الله فيه من الشعور الفطرى — وهو أثر الحكمة الإلهية العامة — يمج هؤلاء الخونة، ولا يحتمل وجودهم فى باطنه، فيدفعهم، كما تدفع الفضلات من المعدة، أو الذنانة من المنخر، أو النخامة من الصدر . لهذا تراهم وإن حلّوا بعض منازل الأرض من زمان بعيد، وأيدهم بعض النفوس الخبيثة من ذوى الشوكة لأغراض سافلة إلا أنهم لم يثبتوا، ولم يتم لهم الأمر . بل كان عارض السوء منهم كسحاب الصيف، كلما ظهر انقشع .

« والنظام الحقيقى لنوع الإنسان — وهو الدين — لم يزل قائما راسخا، فى جميع الأجيال، وعلى أى الأحوال. فلم تبق ريبة فى أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان. فلو قام الدِّين على قواعد الأمر الإلهى الحق، ولم يخالطه شىء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه : فلا ريب أنه يكون سببا فى السعادة التامة، والنعيم الكامل، ويذهب بمعتقديه فى جوار الكمال الصورى والمعنوى، ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهرى والباطنى، ويرفع أعلام المدنية لطلابها . بل يفيض على المتحدثين من ديم الكمال العقلى والنفسى ما يظفرهم بسعادة الدارين »(٢) .

---

(١) المصدر السابق : ص : ١٠٤ .

(٢) المصدر السابق : ص : ١٠٥ ــ ١٠٦ .

**اوجه المشاركة فى الفكر:**

**اولا** : ومنا يلخص جمال الدين هذه الأوجه،ويتحدث عنها فيقول : « لقدوضعوا مذاهبهم على بطلان الأديان كافة ، وعدها أوهاما باطلة ومجعولات وضعية ..

**ثانيا** : قالوا : إن الإنسان فى المنزلة كسائر الحيوانات ، وليس له من المزايا ما يرتفع به على البهائم ، بل هو أخس منها خلقة ، وأدنى فطرة . فسهلوا بذلك على الناس إتيان القبائح ، وهونوا عليهم اقتراف المنكرات ومهدوا لهم طرق البهيمية ، ورفعوا عنهم معايب العدوان .

**ثالثا** : ذهبوا إلى أنه لا حياة للإنسان بعد هذه الحياة ، وأنه لايختلف عن النباتات الأرضية : تنبت فى الربيع مثلا ، وتيبس فى الصيف ، ثم تعود ترابا . والسعيد من يستوفى فى هذه الحياة : حظوظه من الشهوات البهيمية .

«وبهذا الرأى الفاسد أطلقوا النفوس من قيد التأثم ، ودفعوها إلى أنواع العدوان، من : قتل... وسلب .. وهتك عرض . ويسروا لها الغدر والخيانة .. وحملوها على فعل كل خبيثة .. والوقوع فى كل رذيلة .. وأعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشرى »(١).

« ويزيد فى شناعة ما ذهبوا إليه ، أن فى أصولهم : الإباحة والإشتراك المطلقين ، فيزعمون أن جميع المشتهيات حق شائع ، والاختصاص بشىء منها يعد اغتصابا...

فلم يبق للخيانة محل ، فإن الاحتيال لنيل الحق لايعد خيانة ، ومثلها الكذب ، فإنه يكون وسيلة للوصول إلى حق مغتصب — فى زعمهم — فلا يعد ارتكاباً للقبيح .

« لاجرم أن آراء هذه الطائفة مروجة للخيانات .. باعثة على افتراء الأكاذيب .. حاملة للأنفس على ارتكاب الشرور والرذائل ، وإتيان الدنايا والخبائث » (٢).

---

(١) المصدر السابق ص٤٦ (٢) المصدر السابق ص ٦٦

في الأثر على الانتاج والعمل الانساني الرفيع :

« وهذه الطائفة النيتشرية تسعى لتقرير الاشتراك في المشتهيات ، ومحو حدود الإمتياز ، ودرس رسوم الإختصاص ، حتى لا يعلو أحد عن أحد ، ولا يرتفع شخص عن غيره في شيء مّا ، ويعيش الناس كافة على حد التساوى ، لا يتفاوتون في حظوظهم .

« فإن ظفرت هذه الطائفة بنجاح في سعيها هذا ، ولاق هذا الفكر الخبيث بعقول البشر ، مالت النفوس إلى الأخذ بالأسهل : فلا تجد من يتجشم مشاق الأعمال الصعبة ، ولا من يتعاطى الحرف الخسيسة ، طلبا للمساواة في الرفعة . فإن حصل ذلك اختل نظام المعيشة ، وتعطلت المعاملات ، وبطلت المبادلات ، وأفضى إلى تدهور هذا النوع في هوة الهلاك .

« نعم إن أفكار المصابين بالماليخوليا لا تنتج أحسن من هذه النتيجة . ولو فرضنا محالا وعاش بنو الإنسان على هذه الطريقة العوجاء ، فلاريب أن تمحى جميع المحاسن ، وضروب الزينة ، وفنون الجمال العملى ، ولا يكون لبهاء الفكر الإنسانى أثر ، ويفقد الإنسان كل كمال ظاهر أو باطن ، صورى أو معنوى ، ويعطل من حلى الصنائع ، وتغرب عنه أنوار العلم والمعرفة ، ويصبح في ظلام جهل ، وبلاء أزل ، وينقلب كرسى مجده ، وينثل عرش شرفه ، ويصحر في بادية الوحشية كسائر أنواع الحيوان ، ليقضى فيها أجلا قصيراً مفعما بضروب الشقاء ، محاطا بأنواع من المخاوف ، محشوا بأخلاط من الأوجال والأهوال .

« فإن المبدأ الحقيقى لمزايا الإنسان : إنما هو حب الاختصاص ، والرغبة في الامتياز فهما الحاملان على المنافسة ، السائقان إلى المباراة والمسابقة . فلو سلبتهما أفراد الإنسان : وقفت النفوس عن الحركة إلى معالى الأمـــور ، وأغمضت العقول عن كشف أسرار الكائنات ، واكتشاف حقائق الموجودات ، وكان الإنسان في معيشته على مثال البهائم البرية — إن أمكن له ذلك — وهيهات هيهات ! (١) .

* * *

(١) المصدر السابق ص ٦٧ — ٦٨

تلك تحديات الفكر المعاصر الذى تسرب وكاد يستوطن فى المجتمعات الإنسانية .. فى تفكير الخاصة والعامة على السواء ، وهى تحديات تتطلب قوة الإيمان بالإسلام .. وحسن الفهم والعرض لمبادئه فى مواجهة هذه التحديات ، خشية من ضياع شباب اليوم .. وذهاب الإسلام لفترة لا يعلم مداها إلا الله .

إن التحديات المعاصرة للإسلام .. ولكتاب الله .. ولإيمان المسلمين بهما : هى تحديات تصور جولة قاسية ضد القرآن ، من أولئكم الملحدين الصادّين عن سبيل الله .. ومن رفقائهم فى الاستعمار ، الذين تدفعهم نوازع السيطرة والاستغلال وراء الصليبية العالمية .. هى تحديات شرسة ، وكريهة ، نفذت بالفعل إلى شرايين الحياة الإسلامية .. وتواجه الآن وجها لوجه : الإيمان بالإسلام فى قلوب ملايينهم ، وبالأخص: قلوب الشباب .

وإن هذه التحديات فى قوة دفعها .. وفى شراسة تشبثها بعقول المسلمين .. وفى نفاذها المحكم : تواجه مع ذلك ضعفا بيننا .. أى بين دعاة الإسلام وعلمائه . وقد تواجه استسلاما من بعضهم .. أو قبولا عند البعض الآخر فى غفلة من الإيمان لديهم .. أو فى يقظة تلتبس بها آمال مؤقتة وزائلة .

وعندما يتسرب الإلحاد إلى قاعات الدراسة فى جامعة الأزهر باسم التبادل الثقافى ، يحمله الصادّون عن دين الله من جامعة « كارل ماركس » بالقسم الشيوعى من ألمانيا .. أو بأى اسم آخر : فقد دق عندئذ ناقوس الخطر ، ينذر : بأن شعار : لا إله إلا الله .. محمد رسول الله ، قد أحاطت به سواعد الفناء : فى معقله وفى حصنه الأخير .

وإن الله لا يحفظ دينه إلاّ بقلوب المؤمنين به . فإيمان القلوب هو الذى يرعى دين الله بالحفظ .. ويحول دون النيل منه فى وجه الظالمين .

فهل لدينا بقية من إيمان نتصدى بها لشرح دين الله ، ورد الشبهات السافرات . وهى سهام قاتلة ، توجه من هنا .. وهناك : إليه ؟ .

إن هذا الحديث عن التحديات للقرآن بالأمس .. واليوم : هو أولا : عرض لخطة الأسلاف منا ، فى الدفاع عن العقيدة والإيمان بها . ومهما يكن فى خطتهم من نقاط ضعف أو سلبيات : فقد قاموا بواجبهم بالفعل نحو دين الله ، فى مواجهة الرواسب الفكرية والأيديولوجية فى المجتمعات الإسلامية .

وفى الوقت نفسه هو ثانيا : تصوير مجمل للمشاكل والتحديات المعاصرة التى يرمى بها الإلحاد العلمى . . وتدفع بها الصليبية الدولية معه للتشويش على الإسلام أملاً فى انصراف الأجيال التى ستحمل المسئولية غداً فى المجتمعات الإسلامية : عنه ، وعن مبادئه وبذلك تهتز أقدام المسلمين على أرض مجتمعاتهم .. ويعيشون أتباعا لسلطان غيرهم .. وعلى الفتات الباقى من ثروات بلادهم ، والتى يعملون فيها آنئذ لحساب هؤلاء الأسياد .. أو لأولئكم .

فهل يسمع النداء ؟ .. وهل من مجيب ؟

# فهرس

# كتب للمؤلف

**( أ ) كتب طبعت :**

| | | |
|---|---|---|
| ١ — الفكر الإسلامى الحديث ـ وصلته بالاستعمار الغربى | الطبعة | الثامنة |
| ٢ — الفكر الإسلامى المعاصر ـ مشكلات الحكم والتوجيه | « | الثانية |
| ٣ — الفكر الإسلامى المعاصر ـ مشكلات الأسرة والتكافل | « | الثالثة |
| ٤ — الفكر الإسلامى فى تطوره | « | الثامنة |
| ٥ — طبقية المجتمع الاوربى — وانعكاس آثارها على المجتمع الإسلامى المعاصر | « | الثامنة |
| ٦ — الإسلام فى الواقع الإيديولوجى المعاصر | « | « |
| ٧ — الإسلام فى حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة | « | الأولى |
| ٨ — خمس رسائل إلى الشباب المسلم المعاصر | « | الثانية |
| ٩ — الإسلام ونظم الحكم المعاصرة | « | « |
| ١٠ — نظام التأمين بين هدى الإسلام وضرورة المجتمع المعاصر | « | الأولى |
| ١١ — غيوم تحجب الاسلام | « | « |
| ١٢ — الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم | « | « |
| ١٣ — الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى | « | الثامنة |
| ١٤ — الإسلام فى حياه المسلم | « | الثالثة |
| ١٥ — رأى الدين بين السائل والمجيب : جزء ١ ، ٢ معاً طبعه مزيده ومنقحة | « | الثالثة |

| | |
|---|---|
| ١٦ — الدين والحضارة الإنسانية | الطبعة الثالثة |
| ١٧ — نحو القرآن | » الاولى |
| ١٨ — من مفاهيم القرآن ـ فى العقيدة والشريعة | » » |
| ١٩ — منهج القرآن ـ فى تطوير المجتمع | » » |
| ٢٠ — عالمية الثقافة فى القرن الثالث الهجرى : للسهروردى ضمن الكتاب التذكارى للسهروردى | » » |

**التفسير الموضوعى للقرآن الكريم**

**أولا ـ تفسير السور المكية :**

| | |
|---|---|
| ١ — سورة الاعراف | طبعة ثانية |
| ٢ — » الجن | » ثالثة |
| ٣ — » الصافات | » أولى |
| ٤ — » الأنعام | » » |
| ٥ — » النحل | » » |
| ٦ — » يونس | تحت الطبع |
| ٧ — » هود | » » |
| ٨ — » المؤمنون | » » |
| ٩ — » الشعراء | » » |
| ١٠ — » يوسف | » » |
| ١١ — » إبراهيم | » » |
| ١٢ — » الحجر | » » |
| ١٣ — » الإسراء | » » |

رقم الايداع بدار الكتب ٢٩٨٥ ـ ٧٦
الترقيم الدولى ٠ ـ ٢٢ ـ ٧٢٣٦ ـ ٩٧٧

# هـــذا الكتاب

« نحو . . القرآن » يوضح :

● أن الناس يختلفون فى اقترابهم من القرآن :

منهم من يقترب منه ليسىء إليه بتوجيه الإتهام إليه ـ كان ذلك فى الماضى . . وهو فى الحاضر الآن : من هم فى الماضى ؟ . . ومن هم فى الحاضر ؟ . .

ومنهم من يقترب منه مخلصا ، ولكن قد يسىء إليه بطريقته فى التفسير . . أو بتوضيح حجيته فى الإعجاز . كان ذلك فى الماضى . . ولم يزل فى الحاضر . .

ومنهم من يقترب منه فى خشية ، وهو فى حرص على أن يلهمه الله الصواب : إن جعل منه بالتفسير الموضوعى منهجاً فى حياة المؤمن . . وبموضوعيته فى التوجيه . . وملاءمة مبادئه لخصائص الطبيعة البشرية : حجة على إعجازه . .

● كما يوضح : أن المادية اليوم تثير نفس الاتهامات التى أثارتها الجاهلية على عهد الرسالة . . وأن أسلوب رد تلك الاتهامات لم يزل هو نفس أسلوب ردها بالأمس ، كما تكفل القرآن . .

● وأخيراً يوضح : أن التحديات التى أتت بها روافد الثقافات الأجنبية فى الماضى وجدت من علماء المسلمين بالأمس : مدافعين ضدها ، وإن تخلف عن جدلهم تعقيد العقيدة بعد يسر القرآن فى عرضها . .

وأن التحديات المعاصرة ـــ وهى تحديات مستوردة أيضاً ـــ وجدت من المسلمين فى الحاضر من يتبناها . بينما ضعف علماء المسلمين فلم يحاولوا فهمها ، فضلا عن مواجهتها . . وما هى الاتهامات ؟ . . وما هى التحديات ؟ . . وما هى موضوعية التوجيه ؟ . . وماهى مبادىء الدين التى تلائم خصائص الطبيعة البشرية ؟ . .

● وبأسلوب سهل يُبَسِّط لنا الأستاذ الدكتور محمد البهى . هذه القضايا وما التبس فيها بأفاعيل المغرضين والجاهلين . . ثم يحذر من تشويش المرتد « الإسلام » وقلوبهم خاوية منه . .

● ويسر « مكتبة وهبة » أن تقوم بنشر هذا الكتاب . ليكون مص المسلمين ـــ ينير الطريق ـــ « نحو . . القرآن » . .

(مكتبة وهبة)

الثمن ٦٠ قرشاً

